سُلالةُ الكواكبِ

-رواية-

مجدي الشاعر

دار دريم بن للطباعة والنشر

١ العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا ٨ ،مدخل

الهاتف(١٠٠٣٢٨٨٥٩٦)(٠٠٢٠)

إلكتروني بريد: dream.pen92@gmail.com

سلالة الكواكب

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م

تنسيق داخلي وتدقيق لغوي وتصميم غلاف:

فريق دريم بن

رقم الإيداع:2020/17044

I.S.B.N \ 978-977-6794-36-8

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيا نَسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطي من الدار .

.جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

سُلالةُ الكواكبِ

"الناسُ رسائلٌ تمشي على الأقدام"

مجدي الشاعر

إلى صديقي رمضان الذي منحني يومًا في غربتي
مفتاحًا لغرفة شاغرة ولمبة كهربائية لأكتب روايتي..

أمنحك اليوم إهدائي، وإليكَ شكرًا.

«إذا أردت أن تكون إلهًا فاكتب..

إذا أردت أن تكون ملاكًا فاقرأ..

إذا أردت أن تكون إنسانًا فاشعر».

أعزائي المشـــاهـدين، أهلًا ومرحبًـا بكم في لقـائنـا الأسبوعي من برنامجكم: (داخل الصندوق)، يسعدني ويشرفني أن تكون ضـيفتي وضـيفتكم جميعًا اليوم من الأردن الإعلامية الكبيرة رزان الحســيني، التي جاءت إلى مصرــ خصــيصًــا كي نتنـاقش حول القضــيـة المثيرة للجـدل التي ملأت المواقع الإلكترونية، وصــفحات التواصــل الاجتماعي واهتز لها الرأي العام ما بين مؤيدٍ ومعارضٍ، حانقٍ ومشــفقٍ، قاسٍ وعطوفٍ، مصــدقٍ ومنكرٍ، محبٍّ وكارهٍ، والتي كانت محطَّ لفت أنظار الجمهور حول العالم العربي، فاصل قصير ونعود لحضراتكم.

يجلس مصــطفى يشـاهد البرنامج من منزله آســفًا وحزينًا على عـدم قـدرتـه على تغيير مجرى الأحـداث، لو أنـه أخبر مراد أن حـاتم يجلس في بيته لا يريـد أن يعرف أحد عن مخبأه، لو حتى أعلمه عن اتفاق حاتم وصديقه الملازم حسام أن يقدما تقريرًا مزورًا لنغم حول إفادة دكتور الطب الشرــعي، قاطع شتاته وهذيانه بالأفكار صوت المذيع قائلًا:

- رجعنا مرة ثانية إلى حضراتكم ونرحب بضيفتنا التي لم تبخل علينا برغم الأحداث الصعبة بإجراء لقاء معها.

تجلس رزان بفســتانها الأســود القصــير إلى الركبة، ممشــوقة القوام كنهر الأردن، نحيلة الجســد كســاري العلم،

بوجهٍ أبيضٍ دائري كسدر المنسف، وشعر أسود طويل يشبه لياليها الماضية منذ علمت بالخبر.

- أســـتاذة رزان! كيف عرفتِ بالحادثة؟ قالها أنور مقدم البرنامج.

- عرفت من السوشيال ميديا وصديقتي سهام بمصر. أرسلت إليَّ رسالة تعلمني فيها ما آلت الأمور إليه.

قاطعها أنور:

- لكن هناك شـــواهد تؤكد أن حضرـــتك طرف في ســـياق الأحداث!

- أنا طرف بحكم علاقتي بجميع الأطراف، وأضافت:

- لا أنكر اتصالي بحاتم لأخبره بزواج نغم، لكنَّني لم أكن أتوقع أبدًا أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

كانت رزان تتحدث بحزنٍ مبالغٍ فيه، لا تعلم هل هو شعورها بالذنب أم أنها كانت اليد التي شدَّت أجزاء مسدس حاتم! تستجمع الكلمات بصعوبة، وتتحدث بإرهاقٍ شديدٍ كأن المذيع يضـــع يديه في جوفها مخرجًا بعض التفاصـــيل، فيحثُّها أن تروي له ما حدث، تنهدت رزان بعمق وأغمضـــت عينيها، تريثت كي تروي الأحداث جملة وتفصـــيلًا ورجعت بذاكرتها إلى حوالي ثلاثة أعوام مضت.

****

صـباح يوم الأربعاء من شـهر أبريل لعام 2011، مناخ ربيعي يغزو محافظة سـوهاج، إحدى محافظات صـعيد مصر- إلا من بعض موجات النسيم الباردة صباحًا.

تلملم نغم ملابســها على عجلة من أمرها كي لا تتأخر على الحـافلـة التي تقيلهـا إلى القـاهرة، تبحـث عن هـاتفهـا بنظرات مشـتتة تحت وسـادتها بتقليبٍ عشـوائيٍّ، عثرت نغم على هاتفها وضــغطت على زر الاتصــال خاصــة آخر رقم بالمكالمات الصادرة، لم يجِب الهاتف من المرة الأولى فكررت المحاولة في تأفف وكدر، أجاب الهاتف بعد عدة رنات فقالت في لغة جادة وحازمة:

- صباح الخير.

لم تعطِ مساحة للرد وأضافت:

- سوف تتأخر كثيرًا يا مراد.

أجاب مراد بصوته الناعس متثائبًا قائلًا:

- كم الساعة الآن؟

- السادسة والنصف، قالت نغم.

- حالًا سوف أستعد وأعدك لن أتأخر عليكِ بمشيئة الله. قالها مراد وهو يحاول النهوض من على الفراش.

نغم طالبة جامعية في عامها الأخير، من عائلة مرموقة، والدها كان مستشارًا قبل تقاعده إثر صدمة وفاة أخيها الأكبر في حادث سير؛ حيث أصيب بجلطة في القلب كادت تودي بحياته هو الآخر؛ مما دعاه للتقاعد المبكر. هي الأخت الصغرى وتكبرها منال المتزوجة وأمٌ لطفلين، تدرس في كلية الآداب بعدما أخفقت في الإلتحاق بكلية الطب لتحقق رغبة والديها، لم يتدخل والدها بأي واسطة لنقلها من سوهاج إلى جامعة كفر الشيخ التي كانت ترغب في دخولها لتكن بجانب مراد، لكنه لم يتدخل كنوعٍ من العقاب، حيث تبعد سوهاج عن محافظة كفر الشيخ قرابة العشر ساعات.

ينظر مراد إلى ساعة يده متأففًا من تأخيره، وهو جالسٌ في سيارة الأجرة التي تقله من مدينته الريفية متجهًا إلى القاهرة، وضربات قلبه تسابق الزمن متوقًا بالشوق لهذا اللقاء.

رنَّ هاتفه وإذ هي نغم تتصل فقام بالرد في ارتباك وتوتر:

- حبيبتي، قلبي يتراقص طربًا على إيقاع الحب للقائك.

قاطعته نغم بنصف ابتسامة وهي تكشف تلاعبه بالكلمات لتهدئة غضبها:

- هذه المقدمة الجميلة لن تغفر لك.

وأضافت:

- تعلم أن والدي سيرسل سائقه في مجمع السيارات (عبود) بالقاهرة، وكنت أتمنى أن نستطيع الجلوس قسطًا كافيًا يرتاح فيه الشوق من طول الغياب.

أجاب مراد ليدلو بدلو الحب على جمر العتاب قائلًا:

- النظر في عينيك يختزل الزمن، فكلُّ وقتٍ معك غير كافٍ.

تسربت ابتسامة صافية من بين شفتي نغم وازدادت حمرة وجنتيها، ونظرت من نافذة الحافلة على الطريق الصحراوي الذي يزيده سطوع الشمس لمعانًا كالذهب.

شردت قليلًا في خضم مشاعرها المختلفة بين كلمات مراد العذبة التي يصدح الحب فيها كنهر جارٍ يطلق الربيع بين أوردتها، ومكالمة والدها التي أخبرها فيها بأن هناك أخبارًا سارة في انتظار عودتها وخشت أن يكون صديق والدها كرر طلب زواجها من ابنه الضابط بكلية الشرطة، حاولت طرد هذه الأفكار من رأسها كمن ينثر الغبار بعيدًا حتى لا يفسد شهيتها في تناول وجبة الحب التي تنتظرها بالقاهرة على بُعد ساعات.

****

مراد شـــابُ من عائلة فقيرة، تأخر والديه في إنجابه، يدرس بكلية التربية قسـم اللغة العربية في جامعة كفر الشـيخ التي تبتعد عن قريته حوالي ساعة، والده كان رجلًا فقيرًا يعمل غفيرًا في جمعية الإصـلاح الزراعي في قريته. نشـأت جمعيات الإصـــلاح الزراعي في في مصرـــ، بعد إصـــدار قانون (الإقطاع الزراعي)، بعد قيام ثورة يوليو عام 1952 التي كانت وســـيلة عبد الناصر في بناء قاعدة شـــعبية كبيرة في قلوب الفلاحين والبسـطاء الذين يمثلون غالبية الشـعب المصري آن ذاك بعد توليه حكم البلاد؛ وكان من أهم مهام توليه هذه هو القضـــاء على ركيزة الاحتلال البريطاني لمصر في احتكار الأراضي الزراعية بمسـاحات كبيرة لفئة كبار الدولة والسـياسـيين؛ مما أدى إلى خللٍ رهيبٍ بدأت آثاره في مصـــادمات بين الفلاحين وكبار الملاك والســـلطات المحلية في بعض القرى، حيث يشـــتمل القـانون على شروط محـددة للحفـاظ على خصـــوبـة التربـة ومعدل إنتاجها من حيازة الفلاح الواحد خمســـة أفدنة، وهو ما أســـمته الثورة بالإقطاع الزراعي. كان عاشـــور -والد مراد- مســـؤولًا على حراســـة مخازن الســـماد والبذور التي تمنحها جمعية الإصـــلاح للفلاحين، على أن يتم ســـداد المبلغ بعد

حصاد المحصول الزراعي، كان يقوم بحراسة هذه الموارد في مخازن كبيرة شاسعة المساحة وتوزيعها على الإقطاعيين من الفلاحين بموجب ورقة يختمها مدير الجمعية كلٌّ حسب مساحة أرضه ونوع محصوله الموسمي.

ذات ليلةٍ كاحلةِ الظلام، تلثَّم بعض اللصوص أثناء مناوبته في الحراسة عازمين على سرقة المخازن عندما ذهب لقضاء حاجته بجانب السور الذي سقط جزءٌ كبيرٌ منه أثناء اصطدام شاحنة نقل كبيرة للسماد العضوي، تسلل بعض اللصوص الملثمين وهو يتبول، وقام أحدهم من خلفه بضربه بجذع شجرة كبيرٍ على رأسه؛ فسقط مرتطمًا بالأرض مغشيًا عليه من وقع الضربة، كسروا القفل الكبير وسرقوا السماد والبذور بشاحنة كبيرة كانت تنتظرهم خارج السور. قدمته الجمعية إلى المحاكمة، وقرروا سجنه حتى يتم تسديد المبلغ بالإضافة إلى فصله من وظيفته، لم يكن أمامه حلٌّ آخر غير بيع قطعة الأرض التي يمتلكها عن والده ليسدد مديونيته.

عاش ظروفًا قاسية بعد الواقعة وما آلت إليه الظروف وقتها حتى نصحه أحد أصدقائه بالسفر خارجًا، فسافر آخذًا بنصيحة صديقه إلى الأردن وأقام بها عامًا ونصف، يعمل في مزرعة للخضروات والفاكهة بمنطقة تسمى غور الأردن (وادي الأردن) تقع في شمال المملكة الأردنية

التابعة لمحافظة إربد كما يطلق عليها (عروس الشـــمال) التي تبعد حوالي عشرين كيلومترًا من الحدود السورية. حتى تعرّف على رجلٍ أردني يطلق عليه اسـم (أبو عادل) وهو اسـم حركي؛ كي لا يفصح عن هويته الحقيقية. وكان يعمل في تجارة البشر- مهربًا للمغتربين المصريين من الأردن إلى لبنان. اتفقا على مبلغ ســبعين دولار في مقابل أن يقوم بتهريبه إلى الحدود اللبنانية عن طريق سوريا عبورًا إلى (وادي خالد) الذي يقع بين الحدود السورية شمالًا وبين الحدود اللبنانية.

اسـتعد عاشـور -والد مراد- إلى السـفر ليلًا، وأخذه أبو عادل إلى غرفة صغيرة دخلها عاشور وجد ما يقرب من ثمانين رجلًا مصرــيًا، ظل واقفًا حيث لا موقع للجلوس، وقام أبو عادل بتوزيـع رغيفٍ واحدٍ يابسٍ على كلِّ فردٍ. وبعد ســـاعة تقريبًا جاءت سيارة كبيرة بثلاثة مقاعد أمامية ومساحة شاغرة كبيرة بالخلف مغطاة بشـــادر أســـود، ركبوا بها جميعًا، تخلو الشـاحنة من الضـوضـاء إلا من بعض الهمس بين الأشـخاص، يكســـو الخوف وجوههم، أبعد ما يطمحون له هو الغد الذي يبلغهم الحياة أو يبلغهم الموت، كانت قد اقتربت السـاعة من الواحـدة ليلًا وعلى مقربـة من وادي خـالـد، قـامـت قوات من الجيش السوري بإطلاق رصاصٍ عشوائيٍّ، أُصيبَ السائق على إثره مصـطدمًا بقاعدة صـخرية، نزلوا جميعًا في هرولة وتخبُّطٍ

ومن بينهم كان عاشـور البالغ من العمر خمسـة وأربعين عامًا، ويعاني من ربو على الصدر يسبب له ضيقًا في التنفس، وسقط من جلبابه إبان الحادث بخاخ (فينتولين) الموسّـع للشـعب الهوائية والمنقذ الوحيد له في مثل هذه الحالة، جروا بين الجبال في جماعات متفرقة، يحملون أكفانهم على أيديهم في ظلام دامس ممزوجٍ بصوت طلقات النار، عواء ذئاب وفحيح ثعابين، مخافة أن يمسـك بهم الجنود أو يكونوا طعامًا دسـمًا للذئاب.

شـعر عاشـور فجأة باختناقٍ في صـدره، وضـيقًا في تنفسه، وعرقًا يتصبب من بدنه، ولهيثًا بأنفاسه، ولعابًا يسيل من فمه، وضرباتٍ سريعة في قلبه، التفتَ إليه أحد الفارين معه وهو ينظر خلفه لا يسـتطيع تفسـير ملامحه حيث الظلام، رآه يتعثر في ركضـه يلوِّحُ بيديه في الهواء مترنحًا متوسـلًا أن ينقذه أحدهم، بحث في جلبابه عن البخاخ لم يجده، حشرجة عالية في صدره يرتفع على إثرها صوت سعاله حتى نهره رجل منهم قائلًا:

- كُف عن هذا يا رجل، سيعلمون محل وجودنا.

لم يسـتطع الرد حتى سـقط منبطحًا على وجهه فاقدًا الوعي والحركة.

توقف رجلان من الفرقة التي كانت تجري معه، أحدهما يحثه على السير والآخر ينهره على صوت سعاله الذي سيوشي بهم

قال واحد منهم حين رآه فاقدًا للوعي:

- ماذا سنفعل؟

فرد عليه الآخر:

- نلقيه من فوق الجبل.

قاطعه الرجل وعلامات الذهول على وجهه:

كيف تقول ذلك؟

فنهره بيديه قائلًا:

- لن نكون خيرًا من نبي الله نوح الذي ترك ابنه للطوفان! يجب أن نلقيه حتى لا يتتبع رجال الشرطة سيرنا، وغدًا سيعثر عليه أحد الشرطيين أو أحد الذئاب.

****

على نحو الساعة الثانية والربع وصلت نغم إلى مجمع السيارات، أمسكت بحقيبتها منزعجة من قيظ الحرارة، تهادت القبلات مع صديقتها سهام الواقفة جوارها بابتسامة خفيفة وباغتتها قائلة:

- أين السائق؟

- أعتقد أنه لم يصل بعد، قالتها نغم في تلعثمٍ وارتباك وأضافت:

- سأحاول الاتصال به.

رفعت سهام حاجبيها في خبث ودهاء وقالت وهي تقطب حاجبيها:

- وهل السائق مَن تنتظرين حقًا؟

سرقت سهام ضحكة من ثغر نغم الخجلة، فلا سبيل من المناورة فقد افتضح أمرها.

- نعم يا سيدتي، أنا بنتظر مراد.

ضحكت سهام بنبرة عالية كمن اقتنص مكسبًا عسيرًا وقالت:

- يا صديقتي، الشعراء يتبعهم الغاوون.

قاطعتها نغم لتفسد عليها نصرها بلغة ماكرة وهي تنظر إليها:

- بل يتبعهم المرهفون!

تصـافحتا واسـتلمت كلٌّ منهما حقيبتها، واتجهت كل واحدة إلى محنًى غير الأخرى.

****

مراد شـابٌ طويلُ القامة، متوسـطُ البدن، عريضُ المنكبين، ذو بشرةٍ حنطية ووجهٍ مسـتطيل، عينان سـودوان وشـعر كثيف وناعم، حليق الذقن إلا من شـعيرات خفيفة أسفل شفتيه.

في تمام السـاعة الثانية والربع ظهرًا وصـل مراد إلى مجمع السـيارات (عبود) بالقاهرة نزل من السـيارة، أخرج محارم من جيب بنطاله الجينز الأزرق، وتناول واحدة جفف بها وعثاء الطريق فوق جبينه وبين عينيه، كان يرتدي قميصًـا صـيفيًّا أبيض، حذاءً رياضـيًا أسـودَ، يتداخل من الجنبين بأشرطة بيضـاء، نظارة سـوداء ذات إطارٍ أبيض، كان قد استعارها من صديقه حاتم الذي يدرس بكلية الشرطة.

أمســـك بهاتفه وقام بالاتصـــال على نغم التى كانت تنتظره منـذ ســـويعـات قليلـة في إحـدى المقـاهي المجـاورة للموقف حرصًا منها على عدم الابتعاد، حتى إذا وصل السائق الذي أرسله والدها تكون على مقربة منه.

وصل مراد إلى مكان وجود نغم وجدها جالسة ببشرتها الحنطيـة المـائلـة نحو البيـاض بقـامتهـا القصـــيرة وبطنهـا المشـــدود، ترتدي بنطالًا أزرقَ، وبلوزةً ســـوداء تظهر نحالة جسـدها إلا من نهديها المكتنزين، ترتدي حجابًا أسـودَ وتضـع بين كسراته نظارتها السوداء.

في مقهًى شـــعبي بجوار المجمع بواجهـة واحـدة مفتوحة على الطريق العمومي، مكون من طابق واحد وطابق علوي صـغير تصـعد إليه من خلال سـلم خشـبي، طاولات وكراسي بلاسـتيكية قديمة الصـنع، يجلس بعض الأشـخاص وبمحاذاة النافذة التي تطل على الطريق في طاولة من مقعدين متقابلين تجلس نغم، في التفاتة سريعة لاحظت أحدًا يقترب منها فأسرعت بالنظر نحوه.

- مراد!

سُرّت كثيرًا وقامت من مقعدها فمدت يديها وفي خجل متبادل تصافحا، تلألأت عينا نغم البنيتين بحدقاتهما الواسعة، وغمرتهما سعادة عارمة.

- حمدًا لله على سلامتك، في مبادرة منها قالت نغم.

سحب مراد مقعده قبالة نغم وهو يحاول الجلوس وقال:

- بل حمدًا لله على سلامتكِ أنتِ، وأضاف في شيء من التهذيب:

- أعتذر على تأخيري.

وبلغة مداعبة تخالطها ابتسامة ورشاقة قالت نغم:

- أما عن الموعد فلم تتأخر، قالتها وهي تقطب حاجبيها واستطردت:

- وأما عن اللقاء فقد تأخرت كثيرًا.

فقال مراد هامسًا:

- تبدين بكامل أناقتك.

شعرت نغم بالخجل وتسربت ابتسامة خفيفة تصاحبها نظرة بالفضاء لتهدئ من توترها بعض الشيء، وارتفعت دورتها الدموية في وجنتيها وعروق يديها الزرقاء التى

تظهر من كفيها واستجمعت من أعمق نقطة في حلقها الكلمات وتنحنحت وقالت:

- وأنت تبدو أنيقًا أيضًا.

انكفأ مراد برأسه على صدره لثوانٍ وقطع وصلة الخجل المتبادل نادلٌ شعرا بقدومه، وسألهم:

- تحبوا حضراتكم تشربوا إيه؟

التفت إليه مراد بنظرة حانقة كأنه أطفأ أغنيته المفضلة وهو في قمة هيامه بها وقال له:

- قول لي يا سيدي، أنتم عندكم إيه؟

- سندوتشات كبدة، سجق وحواوشي وعصائر طبيعية زي الفراولة، المانجا، البرتقال والجوافة، ومشروبات غازية.

التفت مراد إلى نغم المنتبهة للحديث وسألها:

- ماذا تفضلين؟

- لا أريد غداءً، فقد تناولت بعض الأطعمة في طريقي، سأتناول كأسًا من عصير الفراولة على عجالة، الوقت ليس كافيًا.

قالتها وهي لم تستعب إلا بعد نطقها وقع الجملة بنفس مراد، أحس مراد بمرارة في حلقه لا تجففها حدائق الفراولة كلها وطلب من النادل كأسين من عصير الفراولة، وانصرف النادل.

توجه مراد بحديثه نحو نغم وقال:

- لا يفسد الحب في المقاهي سوى النُدُل.

ضحكت نغم ساخرة وقالت:

- يا عزيزي، بل لا يفسد الحب الحقيقي ولو اجتمع أهل الأرض في قلوب المحبين.

- اشتقت إليكِ كثيرًا، قال مراد:

ابتسمت في حياء واقتربت من الطاولة أكثر حيث تكون المسافة بين العيون أقل لتكتشف معالم الشوق في عيونه وقالت:

- الأعين أصدق من الألسنة.

اقترب مراد بعينيه كما اقتربت هي حتى يطوي ما يمكن طيّه من المسافة بينهما، فزادت مساحة الشوق وقال:

- الأعين التي تقطنيها لا تعرف الكذب.

تنفست نغم الكلمات بدلًا من الهواء وفي هدوءٍ قالت:

- وأنا اشتقت إليكَ كثيرًا.

فقدا شعورهما بالمكان والزمان حتى أشعرهما النادل بنحنحته واقفًا أمامهم..

- اتفضلوا.

فاعتدلا في جلستهما وبنصف ابتسامة قالت نغم:

- لربما معكَ حق!

- في ماذا؟ قال مراد.

- لا يفسد الحب في المقاهي سوى النُدُل.

ضحكا معًا بابتسامة عالية، وقال مراد محاولًا الإمساك بها:

- لكن عيناكِ تُخبئان شيئًا أجهله!

طبق الصـــمت على صـــدر نغم، تبدلت ملامحها، قطبت حاجبيها، وابتلعت ريقها وأغلقت فمها كمن يكتم سرًا وانحنت برأسها على صدرها كمن يواري أمرًا جللًا.

- ماذا بكِ؟ سألها مراد.

- لا شيء.. لا شيء.

وأضافت في لعثمة لا تخطئها عين مراد:

- أعتقد أنه الخجل أو الشوق لا أدري.. وربما اشتياقي لرؤيتك، فلا أصدق أننا الآن معًا!

رفع مراد حاجبيه وهز رأسه مترنحًا قليلًا في استغراب ومد يده نحو ذقنها في حنو بالغ وقال:

- قلبي يخبرني غير ذلك!

- وبما يخبركَ؟

- يخبرني بما لا أطيق سماعه، فلا تتركيني لهواجسي وأنتِ معي.

رجعت نغم بظهرها تستند إلى الكرسي من مشقة الطريق الذي قطعته من سوهاج إلى القاهرة، ورشفت رشفة من كأس الفراولة كأنها عربة قطار تحتاج إلى وقود كي تنطلق، وعلى الجانب الآخر يخشى مراد بعد هذه الرشفة أن تدعسه كلماتها.

وقالت:

- أبي أخبرني أن هناك أخبارًا سارة بانتظار عودتي إلى المنزل، ولكن دون أن يفصح عن شيء، وأخشى أن يكون كمال بيه كرر طلب زواجي لابنه من أبي؛ نظرًا لأن هذا الفصل الأخير بدراستي وهي الحُجة التي كنت أستند عليها منذ عامين.

انفرجت حدقتا عيني مراد وغيرت ملامحه من فصـل ربيع إلى فصـل خريف بل هو على زمهرير شـتاء، وخزة أصـابته في قلبه وأحس بغلق مجرى الكلام في حلقه وحاول جاهدًا ومجتهدًا أن يحافظ على نبرته الهادئة رغم عصـبيته المفرطة، وتحدث بصـــوت خفيض يكاد لا يخرج منه، شـــعرت نغم بتقلبات فصـــوله وتأليب أفكاره في رأســـه وحرصـــه في اختيار كلماته بعناية، ولشـــعورها بالذنب جراء إفصـــاحها عن أمر لا تعلم حقيقته من عدمها، فنطقت وأوجعت وتوجعت، وأحســـت بأنها ضربت كرة في الحائط فارتدت بوجهها.

آثرت على برهة من الصـمت وكان مراد كمريضًـا فاقدًا للوعي وبحنان بالغ اقتربت منه نغم وقالت:

- أحبك مراد.

فتنهد وانبثقت عيناه من موضعهما كأنه استقبل قبلة حياة.

بعد ومضـة من صـمتهما، سـعت نغم لسـكب الماء على النار التي أشـــعلتها كلماتها لتحولها رمادًا، تبغض هي هذا اللون المبهم الذي يخلق النفاق لا الوفاق.

أطلقت سراح يديها نحـــو يديه فتـــسربت قشعريرة ضربت بكل جســـده وأطفأت شـــيئًا من الغضـــب داخله كلما ضـغطت على إصـبع اسـترخت أعصـابه حتى لامسـت آخر

إصبع فأصبح كأرضٍ آمنة لعبور كلماتها، كعصفورين صغيرين حطو على فرع متين.

تنهدت نغم في أسفٍ:

- تعلم جيدًا وضع أبي ولكنك لا تعلم شيئًا عن غضبه.

فتحدث مراد مستجمعًا كلماته وبنظرة حادة وقوية قال:

- وأنت تعلمين وضع قلبي ولكنكِ لا تعلمين شيئًا عن إرادته.

فقالت نغم محاولة أن تقيم هدنة حينما شعرت بنشوب حرب بين كلماته:

- يا مراد، الإرادة الحرة تأتي من الأشخاص الأحرار وأنا لست بحُرة وأبي ليس رجلًا عاديًا.

وبلعت كلماتها خوفًا أن تضع السهم في صدره لو أضافت (ولم يرض بكَ في مثل هذه الظروف) فصمتت.

اقترب منها مراد وشد على يديها وقال:

- وماذا عن الحب؟

ردت نغم محافظة على هدوئها:

- الحب يسكن في قلبي مسكن الملائكة من السماء، وأضافت:

- لكن إرادتي من سكان أهل الأرض، أبي رجل قضاء لا يملك غير حكمين إما بالسجن أو الحرية.

فتدخل مراد ليمســـح عنها غبار الحزن الذي أثاره الحديث وقال:

- وماذا إن سجنكِ بحكمه من زواج ابن المستشار؟

فتبسمت نغم في سخرية وامتعاض وبرود وحزن وقالت:

- لا تعليق على أحكام القضاء.

فصمت مراد لشعوره باستسلامها في حال كان الأمر صحيحًا وقال:

- تطعميني الحـب كـأم تـداعـب طفلهـا، تراقص ملعقـة السـيريلاك أمام عينيه وهو في زهو وابتهاج يحاول التقافها فتأكلها هي بدلًا عنه.

ضحكت نغم بصوت عالٍ وقالت:

- ويعجبني فيكَ أنكَ طفلًا غضوبًا، وواصلت ضحكتها.

فبادرها بشطر من بيت شعري من كلمات نزار قباني:

«إن الرجال جميعهم أطفالُ».

ابتسامة خفيفة عبرت شفتيها واقتربت منه ثانية وقالت:

- وماذا تقول أنت يا مرادي؟

تراجع مراد بظهره قليلًا وابتلع ريقـه ونظر إليهـا بين حـب وغضـــب وحاول تذكر أبياته الشـــعرية التي كتبها على جمر انتظارها ليالٍ طوال. اســـترخى في مقعده واقترب منها ثانية وقال:

الحبُّ مِنكَ سائغٌ شرابُه

أنا المصبُّ وأنتَ أنتَ المنبعُ

فَضفِض شعورَك يا جليسُ محبَّتي

إنّ لِباسَ الحب دومًا واسعُ

رتّل ما تيسر مِنْ هـواك

الرُّوحُ فيك والفؤادُ لا يهجعُ

واقصِدْ دياري مرةً لو دون قصدٍ

واكرِمْ نزيلًا بات يشكو المهجعُ

كُثُر الأحبة في جوارك يُشقِني

الأسماكُ لا تدري أن السماءَ تدمعُ

****

«ألا تُحلّق هذا لا يعني أنك بلا أجنحة

بل يعني أنك لا تحاول».

دلتا النيل شـــمال مصرـــ، تقع محافظة كفر الشـــيخ الغنية بالطبيعة الســاحرة والثروة الســمكية والتربة الخصــبة والقلوب البســـيطة المفعمة بالحب، في مراكزها تتحســـس الجمال وفي قُراها تلمســـه، لو لمســـت بيديك طين أراضـــيها لنمت بين راحتيك ســـنبلة، ولو ارتويت من جداولها الجارية بين الأحواض والترع لاستوطنت في روحك شجرة.

في إحدى قُراها الريفية الخضراء، التى تحفها الأشـجار من كل حـدب وصـــوب، طريق ترابي تســـتقيم على جانبيه البيوت كالرســم البياني عالية ومنخفضــة، تســبح الدواجن في أحواضها بغنوج، تزقزق الطيور حول أغصانها في تناغم، يقود الأوركسترا قعقعة الصقور، تعزف خيولها في صهيل، ترد عليه الديكة في صـــياح، تخفف الدجاجات بنقنقتها من إيقاع الموسـيقى، لتغدو معزوفة ربانية جميلة تصـفق لها حواسـك دون إرادة، في القُرى المصرية يسمع الموسيقى من به صممُ.

منزلٌ كبيرٌ على مســاحةٍ فســيحة وأرض رحبة، مكون من طابقين، تطل شرفاته على مســـاحة خضـرـــاء شـــاســـعة وشـجيرات بعض الخضـروات والفاكهة، التي تَشرَئِبُّ بأعناقها في موازاة سور الحديقة.

في ردهـة البيـت يجلس والـد نغم بجلبـاب بلـدي فضـفاض وأكمام واسـعة، يقرأ في كتاب قضـائي ويتناول كأسًـا

من الشـاي الفلاحي المغلي، قطع وصـلة تمعنه بالقراءة صـوتًا يأتيه وهو يهبط من على درجات السلم.

- عصمت، يا عصمت.

كانت والدة نغم من تنادي.

- نعم يا فريال، أجابها عصمت وهو ينظر في كتابه.

أضافت فريال في لهجة مضطربة:

- تأخرت نغم كثيرًا وأنا قلقة عليها.

كانت الشـمس قد اسـتوطنت جيب السـماء لتهنأ بنوم عميق وحلَّ الليل راخيًا ستائره.

- لا تقلقي، سـوف أقوم بالاتصـال عليها الآن ولكن أسرعي في إعداد الطعام. قالها عصـمت بعد أن أغلق الكتاب ووضـعه أمامه على المنضدة يمسك بهاتفه.

- الطعام صـار جاهزًا، قالتها فريال وهي تولي وجهها شـطر المطبخ.

تناول عصمت هاتفه واتصل على نغم.

- حبيبتي أين أنتِ الآن؟

أجابت نغم معتذرة عن تأخيرها وقالت:

- كان الطريق مكتظًا بالسيارات في ساعات الظهيرة، خمس دقائق بمشيئة الله وسوف أكون أمامك.

أغلقت الهاتف وهي في حيرة من أمرها، تخشى حدوث صدامًا مع والدها، تتحاشى غضبه الشديد بأحكامه القاطعة التي لا تقبل الطعن، سرحت بذهنها تتذكر بعض نسمات لقائها بمراد، وتجهم وجهها فجأة بين أفكارها الهائجة المائجة التي تلقيها مترنحة بين خوف وخوف، تفكر ماذا يفعل مراد لو كان الأمر صحيحًا ويريد أبي زواجي من ابن صديقه؟

هو ما زال طالبًا بفصله الأخير، وأبي لن يرضى به على هكذا حال، والدته سيدة بسيطة تعمل بالحياكة لنساء القرية وكانت تطلبها أمي في بعض مهام البيت مقابل عدة قروش تتقاضاها، تجيب نغم على نفسها وتقول:

- هذه أمور دفنتها الأيام وتناثرت مع رياح النسيان ومراد شاب رائع، طَموح ولديه مستقبل، وشاعر لسانه فصيح، مجتهد في عمله ودراسته، ويدرس بالجامعة لا ينقصه شيء، لكن الآباء لا ينسون، وأبي لا ينسى أن والده خرج من القرية متهمًا بالسرقة حتى مات في غربته وحيدًا والزواج بعين والدي كإبرام صفقة يحافظ فيها على مظهره الإجتماعي وقيمته أمام أعيان القرية والفلاحين بمصاهرة صديقه المستشار وليس للحب في قلب أبي من سبيل.

تذكرت نغم حديثًا دار بينها وبين والدها ذات مرة، حينما دخل غرفتها، تقرأ في رواية عاطفية وتبكي.

- ما يبكيكِ يا نغم؟ قالها في حنان بنبرة هادئة متحسسًا رأسها

- لا شيء يا أبي.

ذهبت عيناه حول الرواية التي تمسك به وقال:

- ماذا تقرئين؟

متجهًا بعينيه نحوها ويمسك بوجهها في لطف.

- رواية يموت البطل فيها وهو يدافع عن حبه.

- الحب شيء عظيم يا ابنتي، عظيمٌ في الروايات لا في الحقيقة

نظرت نغم ناحيته مستغربة قاضبة حاجبيها وقالت:

- كلنا يا أبي أبطال روايات، كلنا نعيش نفس الحيوات نتشابه في الظروف ونختلف في الأسماء.

ابتسم والدها من كلامها فخورًا بجدالها ونضج مشاعرها وقال:

- الحب في الروايات يا نغم يحكمه شخص واحد وهو الكاتب يعرف من أين يبدأ وفيما ينتهي لصالح رغبته، لكنه في الحقائق بيد أقدار وظروف تعترض غالبًا مع رغبة البشر،

وأضاف مشيرًا بسبابته نحو الرواية التي ما زالت ممسكة بها نغم:

- الحب يا صغيرتي يبدأ من هنا وينتهي حيث هنا.

****

في أطراف القرية منزل صغير يسكن فيه مراد ووالدته، تتزين جدران غرفته ببعض الصور لشعرائه المفضلين وصورة كبيرة متفردة على جدار بمفردها لأم كلثوم، منها تخلق له مناخًا فنيًا يحثه على كتابة قصائده، ومنها تواري الثقوب والندبات في الجدران التي نبشها الزمن. مكتبٌ خشبي مترهل يوجد فوق سطحه كتبًا دراسية وبعض الكتب والروايات العربية والغربية ودواوين شعرية وبعض الأقلام.

يجلس مراد على الكرسي الخشبي للمكتب، يقلّب في صفحات الكتاب الذي ينظر إليه لا يتصفحه، يفكر في نغم ويحاول مدونًا بعض الأفكار التى تراوده عن نفسها لتُحوَل قصيدة، عزلت دقة الباب بينه وبين أفكاره، تقف امرأة أربعينية العمر بجلباب أسود فضفاض، دار الدهر دورته على ملامحها فبدت أكبر من ذلك.

- تفضلي يا ماما، قالها مراد ناظرًا نحو الباب.

دخلت والدته تحمل بين يديها صينية ألومنيوم مجعدة، أطرافها دهستها الأيام ووضع ورفع الصحون منها وإليها. تحمل بين أطباقها خبزًا وجبنة قديمة تغوص في الصحن بين المِش الفلاحي المصنوع يدويًا ومرت عليه سنون، وطبق من البيض المقلي وبعض شرائح الطماطم، وضعتها من يديها على فراشه وقالت:

- عشاؤك يا ولدي.

ثم جلست على طرف السرير وحطت يديها على صدغها وأضافت:

- هل قابلت نغم اليوم؟

نهض مراد من خلف مكتبه متلعثمًا خجلًا يغوص في حمرته كما تغوص الجبن في المش، ودار بجسده واضعًا يده على المكتب قائلًا:

- نعم! كنت على لقاء معها.

وضعت يدًا على ظهره ويدًا على يديه ونظرت إليه مستعطفة وقالت:

- لسـت ضـد مشـاعرك، لن أكون يومًا بوجه أحلامك وحبك، لكنَّني فقط ضد اختيارك، أنتَ تلقي بقلبك إلى جحيم مستعر اسمه عصمت بيه.

نخرت الكلمة في عقله، وترت أعصـابه وأغضـبته كأنه وحشًا بنفوذه، جبارًا بثراءه، غليظًا بمكانته، فابتعد عنها ضاربًا الحائط بيديه منفعلًا، حانقًا وقال:

- لم تكن مشـــيئتي، ليتها كانت باختياري، بل أجبرني قلبي عليها.

- يا ولدي، لو نظر قلبك إلى جدران غرفتك، وما آلت إليه حياتنا بعد وفاة والدك لتبرأ منك ومنها.

قالتها والدته واقتربت منه قليلًا تربت عليه لتطعن قلبه بسـهام الحقيقة، وتبدد ورود أحلامه بأشـواك الواقع، وقالت وهي تنظر نحو الورق الذي كان يدون فيه أفكاره:

- نغم يا ولدي لن يجمعها بك ورقة مأذون فاجتمع بها قدر ما شئت على الورق بين أشعارك.

نهرها بعينيه غير مصدق وهو تصطك أسنانه وقال:

- حتى أنتِ يا أمي!

اقتربت منه ومســـحت بيديها عن وجهه الدمع وبكت هي وقالت:

- لأن نار قلبك تتقد في قلبي، لأنِّي أمك، فأخشى أن يخبركَ بها غيري.

****

على مائدة طويلة يزف الترف حوافها ويتوسطها الثراء من شـــحم ولحم، تجلس نغم ووالدتها وأختها الكبرى التي جاءت للقاء نغم بعد غياب دام لشهرين وطفلتيها الصغيرتان، يتوسط المائدة والد نغم لا صوت يعلو عدا صوت الملاعق والصحون التي لم يقبض عصمت بيه قبضته عليهما أثناء الطعام، كسر الصمت صوت منال أخت نغم الكبرى المتزوجة من مهندسٍ معماريٍ وتقطن في الإسكندرية، وقالت:

- وماذا عن أخبار سوهاج يا نغم، هل هي جميلة مثلما يقولون عنها؟

انتبهت نغم الشاردة في أفكارها، الغارقة في مخاوفها بين نفس وآخر تنتظر الحياة، المترقبة لإطلاق حريتها من معتقل

الخيبة، تخشى استئناف والدها الحديث، تحذر صمته، تنغرس شوكته في قلبها بدلًا عن اللحم، وقالت شاردة الذهن تجيب بلسانها غائبة عن فطنتها ومزاحها ووعيها:

- جميلة يا حبيبتي جميلة.

أحست منال من نبرتها وهروب نظراتها أن شيئًا ما يؤرِّقها، فعكفت عن الاستطراد، حتى أضافت فريال والدة نغم وهي تقطع في شريحة اللحم:

- لم يتبقَ سوى شهر ونصف وننتهي من سوهاج ونبدأ في زيارتها في القاهرة.

وكأن السكينة امتدت نحو نغم واستوطنت رقبتها فحبست عنها الهواء، تدفقت الدماء في وجنتيها لا تدري ماذا تصنع؟

واتجهت بنظراتها نحو منال التى استلت روحها بالملعقة عِوضًا عن حبات الأرز قائلة:

- يُحكى أن العريس شابٌ وسيمٌ وذو مكانة اجتماعية رفيعة. حنقت نغم، استشاطت، غضبت، توترت، تلعثمت، تورمت، تكمدت، كأن أحدًا نزل بالمائدة فوق رأسها فأدماها، بدت أطرافها ترتجف على إيقاع نبضات قلبها المتعالي وتجرعت من كوب الماء ما يخمد قيظ الحرارة بصدرها، ونظرت نحو

والدها الجالس صامتًا لا ينبس ببنت شفة عدا مضغ الطعام، ثم نظرت إلى منال ترفع حاجبيها وقالت:

- لا أعلم عمَّا تتحدثين؟

ردَّ والدها متحاشيًا النظر في وجهها الذي تتصاعد منه الحرارة كأنه فرنًا يزيد من حرارة الطعام أمامهم وقال:

- أخبرني كمال بيه صـــديقي رغبته في زواجك من ابنه الطالب بكلية الشرطة واتفقنا سـويًا على إتمام الزواج بعد انتهائك من الدراسة مباشرة.

- أبي، حضـــرتك تعلم عدم رغبتي في الزواج في الوقت الحالي، لديَّ أمور عدة حول مستقبلي والزواج ليس في قائمة أولوياتي.

- لكنه أهم أولوياتي، قالها والدها محدق النظر في عينيها جادًا في حديثه.

قامت نغم من مقعدها مســتنفرة وســحبت مقعدها للخلف وقامت تبكي صاعدة إلى غرفتها.

****

تـدور نغم في غرفتهـا متوترة وحزينـة على صراط الحاضر، تترنح مشـــاعرها بين جنة الماضي ونار المســـتقبل،

تغمض عينيها عن آتٍ قد يخلو من مراد، ذهبت بآلة الزمن إلى الوراء عشرة أعوام قضتها بين بحور مراد الشعرية وأنغام آبياته.

تذكرت لقاءهما الأول عندما كانوا صغارًا في فناء المدرسة الإعدادية المشتركة في حصة الألعاب حين اصطدمت الكرة برأسها فسقطت مرتطمة بالأرض، ذهب إليها الصبيان وتقدمهم الطفل الذي دفع بالكرة نحوها معتذرًا عن الخطأ الذي اقترفه، رمقته نغم بنظرة حادة وغاضبة فظهر مراد الواقف خلفه ينظر إليها آسفًا عما حدث، جلس أمامها وشدَّ طرف قميصه ليمسح عن رأسها موضع الكرة، ومسك بيدها لينهضها فنهضت وهي تنظر إليه دون أن تنبس ببنت شفة، رجع الصبيان إلى الملعب عدا مراد الذي يراقبها حتى استدارت لتلقي بنظرة عليه فتبسم بلطف ونظرة محدقة ومنعها خجلها ودهشتها من الابتسام وسلكت طريقها نحو دورة المياه.

في صباح اليوم التالي على بوابة المدرسة استغلت نغم زحمة الطلاب واندفاعهم نحو طابور الصباح واقتربت من مراد الذي يدفع بجسده زملاءه للدخول، وقالت في خجل:

- شكرًا مراد.

توقف مراد ونسىـ أمر طابور الصـباح والتفت إليها مبتسـمًا وقال:

- كيف حال رأسك اليوم.
- أفضل من الأمس.
- صديقي لم يكن يقصد إيذاءك.
- أعلم ذلك، ولكنها آلمتني جدًا.

حزن مراد ونظر إليها بمشاعر طفولية عذبة وقال:

- بل آلمتني بدلًا عنكِ.

خجلت نغم ونظرت إلى الأرض في حياء، فانتبهت للجرس الـذي يقرع في الفنـاء يعلن عن بـدء الطـابور الصـباحي فتقدما معًا إلى الداخل يسـترقان النظر من بين مناكب الطلاب.

****

داخـل الأسـتوديو الكبير، كـاميرات بكـل جـانـب ومصـورون يرتدون زيًا واحدًا وكشـافات إضـاءة كبيرة وأسـلاك

كثيرة، على مقعدين متقابلين يتوسطهما منضدة صغيرة، على الجانب الأيمن تجلس رزان التي تروي تفاصيل الحكاية كاملة، وعلى الجانب الأيسر أنور المذيع المستمع بكل آذان مصغية ويجلس جمهورٌ من الجنسين في حالة من الانتشاء والدهشة.

تدخل أنور بسؤال وجهه إلى رزان الغارقة في تفاصيل الحديث، تختلف نبرتها بين حين وآخر، تتغير ملامحها مع كل مشهد وحدث، سألها أنور الذي يضع يديه على أذنه ليضبط موضع السماعة الملتفة حولها قائلًا:

- وماذا عن علاقتك بحاتم؟ كيف بدأت؟

وضعت رزان يديها على وجهها لترفع شعيرات تسللت من رأسها على عينيها مما حجبت عنها الرؤية، وقالت وهي تغمض عينيها لتغيب في ذاكرتها لتسرد التفاصيل:

- جاء حاتم إلى الجامعة بعد فوز صديقه مصطفى رئيسًا لإتحاد الطلبة بجامعة القاهرة ليبارك له، يدخل علينا ونحن جلوس في مرح نتبادل النكات والضحكات ونزف المباركات لمصطفى، يرتدي بدلة كلية الشرطة في فخر واعتزاز، تصافح معنا جميعًا وقام مصطفى بدوره ليُعرف كلانا على الآخر، تسمَّر أمامي وطال تصافحه بيدي؛ مما دب بي شعورًا لا

أعرف مصـــدره نحوه، انتهت جلســـتنا وتحدث مع مصـــطفي بشـــأنٍ ما أجهله، طلب رقم هاتفي بعد معرفته بأنَّني أردنية متحججًا أنه في خدمتي بأي وقت وأنه يجلس في شـــقة لوالده بالســـادس من أكتوبر. اتصـــل عليّ مســـاءً ليخبرني مسرـــته بلقائي وبادلته الشـعور ذاته، صرنا نتحدث شـبه يوميًا كلما سـنحت الفرصة، حتى...

صمتت رزان لوهلة وانكفأت برأسها ثم أضافت:

- حتى جرت مياه النيل في طبيعتي الصـحراوية فنبتت وردة رغم أنف الصحراء.

مرت الأيام بيننا جميلة وعامرة بالحب والأحاديث الطوال، جمعنا القدر، اصـطحبنا القمر شـاهدًا علينا، امتطينا الطرقات ومرحنا في شـــوارع القاهرة مثل الســـكارى، كل شيء كان مدهشًا وجميلًا.

الشـهر الأخير لي بجامعة القاهرة حيث دراسـتي بكلية الإعلام صادف يوم عيد ميلادي، استأجر حاتم مركبًا في النيل الذي كان يصـب في روحي نشـوة الحياة، كانت مفاجأة لطيفة وجذابة أثنيت عليها كثيرًا، ضحكنا، لعبنا، شربنا، أكلنا، مرحنا،

رقصـــنا وتصـــورنا معًا واحتفظ بالصـــور على قرص مدمج ليشاهده بين الحين والآخر.

ذات ليلة، جاءني صـوته مضـطربًا وحزينًا، أخبرني أن والده يريد زواجه من ابنة صـديقه بإحدى قُرى مصرـ، أبلغني متأسـفًا أنه لم يسـتطع الرفض؛ لأن والدها كان يعمل قاضـيًا ســـابقًا ولديه نفوذ قوي في قريته الريفية وأن والده يريد مصاهرته ليحصل على أصوات القرية جميعها لضمان نجاحه في إنتخابات مجلس الشعب.

قاطعها أنور الجالس مستمعًا قائلًا:

- وماذا كان شعورك حينها؟

أجابت ورأسـها منخفضـة قليلًا كأن دمعة وحيدة حاولت أن تسترق النظر على الحضور وقالت:

- جفت مياه النيل في صحرائي فماتت الوردة.

****

الليل في قُرى مصرـ هادئ يشـبه أن تضـع سـماعة هاتفك في أذنيّك وتغلق عينيك وتطلق خيالك على بســـاط

سحري كالذي استقله علاء الدين صاعدًا للأميرة الحسناء، ضوء خافت، حفيف أشجار، يجتمع النسوة لمشاهدة مسلسلهن المفضل، يتسامرن حول البطل الذي تحلمن به الجالسات كفتى أحلامهن، يغِرن من البطلة بل ويوبخنها ويبصقن عليها أحيانًا إن أغضبت بطلهن.

تتوسد نغم فراشها متكئة على وسادتها ترتدي بدلة رياضة من قطعتين، ينساب شعرها كأنهار جارية، دق الباب عليها وهى جالسة تشاهد بعض الصور في هاتفها بمزاج معتدل، وقبل أن تتحدث دخل والدها فاعتدلت في جلستها، همَّ والدها بالجلوس بجانبها وجلس واضعًا يديه على رأسها متحسسًا خصلاتها الناعمة هادئ الملامح وقال:

- أراكِ غاضبة!

استرد يديه إلى جانبه ونظر إليها بابتسامة هادئة وودودة واستطرد حديثه مضيفًا:

- لم أجبركِ يومًا على الاختيار، حتى في دراستك لم أوجه لكِ اللوم على درجاتك، تركت لكِ تحديد مصيرك لأعزز من شخصيتك وقدرتك على إدارة حياتك فرجاءً لا تجبريني على فعلها.

نهضــت نغم من جلســتها وتحركت بمحاذاة النافذة المطلة على الحديقة متمعنة النظر إلى الســماء الصــافية، تداعب وجنتيها بعض نســمات الهواء الباردة ونظرت نحو والدها قائلة:

- يا أبي! الأمر أكبر من اختيار عريس، بل أنك تفصِّــل لي حياة لا يناسبني مقاسها، دعني أقرر بشـــأن نفســي كما تركت لي الخيار دومًا إن لم يكن رجلًا على قدر أحلامي فدعني اختاره رجلًا يناسب واقعي.

حافظ والدها على هدوءه ونهض يمشيـ نحوها، وضــع يديه ممسكًا بذراعيها وتنهد ثم قال:

- يا ابنتي الزواج له اعتبارات أبعد من أن تدركيها.

- يا أبي كلانا يختلف حول محور واحد.

قالت نغم بلغة حازمة واستطردت مُتحكمة في رباطة جأشها لتقتنص فرصتها:

- أنت تبحث عن الزواج وأنا أبحث عما بعده، أنت تريده ذو مكانة اجتماعية وإن كان غليظًا وأنا أريده ذا مكانة عاطفية وإن كان مُعدمًا، أنت تنظر لمنصــبه وأنا أنظر لإنســانيته. أنت تستقصي عن راتبه وأنا أستقصي عن مشاعره، أنت تريده ثريًا وأنا أريده طَموحًا.

تنهدث وابتعلت ريقها وهدأت ثانية ولم تتمالك نفسها وأجهشت بالبكاء وأضافت من بين زبد فمها وجمر أدمعها الحارقة:

- أنت تنتظره يحمل النجوم على كتفيه وأنا أنتظره يحمل لي السماء كاملة في قلبه.

اقترب والدها مهدئًا من روعها، منحنيًا يربت على كتفيها ويقول:

- يا حبيبتي من الخطأ أن يطلق الإنسان طموحه دون منطق.

- بل من الخطأ يا أبي أن تكبح جماحه. قالتها جادة وحازمة ثم أضافت:

- يا أبي هنالك أُناس لا تملك سوى الأحلام.

تلعثم والدها وأحس بأنه في موضع خسارة فعزم على أن يحوله مكسبًا وقال:

- ليكن كذلك، فأخبريني إذًا دون إنكار عن رجل تجدينه على قدر أحلامك؟

تلعثمت نغم وارتبكت وهاجت وماجت واختل توازنها، لم تتوقع منه سؤالًا كهذا، بل لم تنتظره من الأساس، تاهت بين أفكارها بما تجيب عليه؟ خشت إن أنكرت أن

تزهق الفرصة السانحة وإن تراجعت ألا تستطع التقدم ثانية، وإن سكتت أن تغدو فرصتها هباءً منثورًا، فركت أصابعها في توترٍ؛ مما أحس والدها بتوترها واعتلت الدماء في وجنتيها، اقترب منها ليقيس المسافة بينه وبين كسب الحديث وأضاف:

- لو تحبين رجلًا يستحقك، ارتفع قلب نغم للسماء ولكنه هبط في سقوط مدويٍ حين أكمل قائلًا:

- ويستحق مصاهرتي وأن يكون زوجًا لكِ، أضع يدي في يديه مفتخرًا، فأهلًا به، علام ينتظر!

شعرت أنها لا بد وأن تخبره وتستغل فرصتها أفضل استغلال وقالت:

- حتى وإن كان فقيرًا؟ قالتها غارقة في حمرتها تعُض على إصبعها ترتجف أطرافها.

أجاب والدها في هدوء وتريث ناظرًا نحوها وقال:

- الفقر لا يعيبه، لكنه يعيبني أن أضع يدي في يديه.

- لكنه طَموحًا ومجتهدًا وينتظره مستقبل يفتح له مصراعيه!

حنق والدها من دفاعها لكنه اعتاد حين كان مستشارًا أن يستمع للدفاع حتى وإن كان يهذي، وتأكد من أن الحب هو

ما يمنعها من ابن كمال صـــديقه لا ما اعتذرت به، فهو فقط أراد أن يؤكد لنفســه شـكوكها، وقال لها حازمًا وجادًا وهو يهم بالخروج من الغرفة ملتفتًا إليها:

- إذًا دعيني أختار لكِ رجلًا على قدر واقعك لا أحلامك.

اقتربت منه نغم وهو على الباب فتوقف، مســـكت بيديه وقالت راجية متوسلة:

- يا أبي لا تعاملني كنصَّ القانون.

التفت إليها يمسح بوجهها ويرفع الشعيرات عن عينيها قائلًا:

- لأنك ابنتي، ما زلتُ أعاملك بروح القانون لا بنصَّه.

****

يا حبيبًا زرت يومًا أيكهُ ** طائر الشوق أغني ألمي
لك إبطاء المُذل المنعمِ ** وتجني القادر المحتكمِ
وحنيني لك يكوي أضلُعي ** والثواني جمرات في دمي

تصـــدح أم كلثوم برائعتها الأطلال للشـــاعر إبراهيم ناجي، الذي أَحب بنت الجيران في الســـادسة عشر من عمره، ســـافر ليدرس الطب بالخارج وتزوجت محبوبته، لم تطوِ مشاعره الغربة، بقى فؤاده متوهجًا بعد رجوعه، وذات ليلة في منتصـــف الليل التقى برجل يســـتغيث به لينقذ زوجته التي كانت في حالة ولادة عســـيرة، يرجوه أن ينقذها، وفي بيت الرجل كانت الزوجة مُغطاة الوجه وكانت في حالة خطرة جدًا وهو يحاول أن ينقذها، فجأة.. بدأت أنفاسها تقل وتغيب عن الوعي، عندها طلب ناجي منهم أن يكشـــفوا عن وجهها حتى تســـتطيع التنفس بشـــكل جيد، وكانت الصـــدمة التي اهتز لها عرش قلبه، هي حُب عمره التي لم ينسَـــها يومًا، هي الوجه الذي يألفه ولا يغيب عن ذهنه أبدًا، مع إنه أمضـــــى ســـنين طويلة بعد هذا الحب لكنه كان مرهف المشـــاعر فأجهش بالبكاء وهو ينتظر العملية، وســـط ذهول المتواجدين ولا أحد يفهم مـا يحـدث، وبعـد قليـل رُزقـت بمولودهـا واســـتردت عافيتها إلا من ألم الولادة ومـشى ناجـي من عند الرجل ورجع لبيته قبل مطلع الفجر وعلى باب بيته جلس وكتب قصيدته.

فوق سطح منزل مصطفى صديق مراد تشدو أم كلثوم لتأجج مشاعره وتتسلل عبر حنجرتها الذهبية إلى حنايا القلب ومراكز الروح، أريكة طويلة تتسع لأكثر من شخص، ومنضدة

مصـــنوعة من الخيزران عليها كأســـان من الشـــاي، يجلس الصديقان على الأريكة يتناولان الشاي في انتشاء من عظمة ما تغنيه الســـت. مراد شـــارد الذهن يســـتمع للأغنية في شـــجن وتتنفس روحه الكلمات على مهل فاتحًا رئتيه للصـــوت قبل الهواء كأنه يستنشق الموسيقى.

ضرب مصطفى على فخذ مراد عائدًا به من على مسرح سينما قصر النيل في عام 1966 حيث تقف أم كلثوم بصوتها الجهور تقول: (هل رأى الحب ســكارى مثلنا)، مترنحًا برأســه كأنه درويشًا في حلقة ذكر.

- هي نغم؟

قالها مصطفى بصوت هادئ.

استنشق مراد ونظر إليه في هدوء وقال:

- لم يعرف الحب سبيلًا لي غيرها يا صديقي.

- وماذا أنت بفاعل؟

قالها مصطفي مستفهمًا.

- لا أدري!

قالها مراد في حسرة وأخذ نفسًا عميقًا وأضاف:

- لا يمكنني التقدم، لم أســـتطع الانســـحاب، أفكر ماذا عن والدها لو ذهبت إليه وأخبرته عن مشـــاعرنا؟ لا أعرف كيف تكون نظرته؟

غير أنّي أدركُ جيدًا ما هم عليه وما أنا عليه!

- والدها؟ قالها مصطفى مندهشًا وهو ينهض مضيفًا.

- أجُننت!

شـــعر مراد كأن مصـــطفى بصـــق في وجهه فرماه بنظرة حادة ونهض هو الآخر وقال:

- لماذا تنعتني بالجنون؟ هل أنا من دسّ الحب في القلوب ونفخ الروح في المشاعر؟ هل أنا من سلالة الجمادات؟ ليس لي حق الحياة!

قاطعه مصطفى محافظًا على هدوءه وقال:

- كلامك جيد، لكنه يصـــلح لرواية أو لقصـــيدة ونصـــفق لك وننفعل معك ونحملك أيضًـــا على المناكب، لكن يا صـــديقي الواقعة غير ذلك والواقعة أشد من أن تتحملها.

صمت مصطفى لوهلة واستطرد قائلًا:

- لك حق الحياة فيما دون نغم، لا تلقي بنفسك في النار.

- وماذا إن كانت بردًا وسلامًا؟

- لست نبي الله إبراهيم.

- لكن أباها نمرودًا.

- يا صـديقي! لم أتعمد إحباطك، لكن وجب علي تنبيهك وأن تَرى الحقيقـة كما يجـب أن تُرى، أنـت في معترك غير عـادل ونزال لا خِصـــم لك فيه غير نفســـك، أنت ونغم كالأرض والسماء لا أنت تصعد ولا هي تدنو.

ختم مصطفى حديثه مع انتهاء الجملة الموسيقية لتضرب أم كلثوم في أذنيّ مراد بجملتها الغنائية كأنها تســدل الســتار على حديثهما وتقر بقدرٍ بات محتومًا:

وانتبهنا بعد ما زال الرحيق ** وأفقنا ليت أنّا لا نفيق

يقظة طاحت بأحلام الكرى ** وتولى الليل والليل صديق

وإذا النور نذيرٌ طالعٌ ** وإذا الفجر مطلٌ كالحريق

وإذا الدنيا كما نعرفها ** وإذا الأحباب كلٌّ في طريق

****

يدور مراد في غرفته التي قمع فيها عواطفه وقبعت فيها أحزانه المتزاحمة فضاقت عليه أكثر من ضيقها، يجلده الخنوع، تذبحه الاحتمالات، تخونه التوقعات، تدميه النتائج، ترهقه الخيالات، تمثل بقلبه الظروف، تسحله الفوارق، وتعذبه المسافات.

كيف لهذا البشري أن تلامس يديه الكواكب؟ أن يتمدد في أحضان القمر ويندثر تحت النجوم، أن يكون سقفه سماءً وفراشه سحبًا، كيف يمكنه التسلل لغلافِها الجوي؟

هل تغتر الأشجار على البذور لحقارة حجمها؟ أم تعتذر منها لضعف نموها؟ هَلَك من كونه بذرة أحبت شجرة، سقم من كونه ذرة شغفتها مجرة.

حاول مراد الاتصال بنغم أكثر من مرة دون إجابة، وتتكاثر الأسئلة في ذهنه دون إنجاب، اقترب من مكتبه وهمَّ بالجلوس ليرسل إليها رسالة نصية وإذا بهاتفه يرن، ضربت الرنة في صدره فتحرك قبل يديه ليقوم بالرد، في لهفة سريعة وخاطفة قال:

- أين أنتِ؟

وأضاف دون أن ينتظر إجابة:

- كررت اتصالي أكثر من مرة حتى كاد يقتلني القلق.

جاء صوت نغم مختلطًا بنحيب ونشيج وأنين وحشرجة كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

- ماذا بكِ؟

قالها مراد مرتعدًا.

تمادت نغم في البكاء بصوت عالٍ تكتمه بوسادتها التي تبللت من هطول الدمع عليها وفشلت كل محاولاتها في الصمود، غلبت عاطفتها قوتها واستسلمت لفرض الوجع والحسرة.

غرغرت عينا مراد وصارت مقلتيه حُبلى تنتظر مخاضًا سريعًا، تجمَّعت السُحبُ في عينيه حتى غيمت، لكنها بخلت بهطول المطر، وبعد وهلة من البكاء المتواصل الذي يغزو أنفاس نغم، حاولت التماسك ومسحت عينيها بأطراف أناملها وتحدثت بحزن بالغ وهي تلهث كأنها صعدت لقمة جبل:

- أبي يرغمني على الزواج من ابن كمال بيه.

وقعت الجملة في نفس مراد وقوع الصخر على أرض غبراء وفرز جسده كل الأدرينالين الموجود فيه واستشاط غضبًا؛ سخط، امتعض، كمد، جزع وهوَى من فوق آماله، تناثرت

صلابته، خارت قواه، تصلبت عروقه، تجمدت كلماته وحدث ما كان يخشاه بل حدث سريعًا عما كان يتوقعه.

ومن بين كل هذه المشاعر التي تخالج نفسه أحس بالمخاض أخيرًا وانهمرت دموعه.

- لمَ أنت صامت؟ قالتها نغم بعد عناء من ينتقي كلماته.

- لا شيء، أجابها مراد بنبرة خفيفة لا تكاد تُسمع.

قالت نغم متماسكة بعض الشـــيء، تستنشق الهواء كأنها في لحظة احتضار:

- ماذا يجب أن نفعل؟

- أبي لا يرضـــخ لرغبتي، بل لا تجد في ميزان عدله قدرًا لي وأخبرته أن قلبي معلقًا بك دون أن أفصح عن أسمك.

أحس مراد بإهانة تضرب بصدره، وشعر بانتكاسة كأنها وصـــمته بالعار، وأغمض عينيه وأحس بحجم الفوارق بينهما التي كانت تزيله مشاعرهما طوال الوقت، ركلته جملتها في صدره، بل بصقت على كل زاوية في جدران غرفته فشعر باتكاء الجدران عليه تحتضـنه مما هوَّن عليه أنه ما زال هناك شيء ما يئِن لخاطره وعزم على الحديث لتوضـــع الأمور في نصابها دون زيف أو خداع وأسَرَّها في نفسه ولم يُبدَها قائلًا:

- الفقر يُكبِّل قلبي.

فسقطت دمعة حارقة وصلت إلى صدغه وأضاف:

- أريدك بقدر ما بيننا، أريدك بحجم ما لا أســتطيع فعله، وأحبك بطول الفوارق وعرضــها. لكن! صــمت لوهلة يبتلع ريقه وقال:

- لكن أبـاك ينتظر مـا لا يمكنني تقـديمـه، وينظر لمـا ليس بوسعي فعله ويطمح لكِ بما ليس بمقدرتي الحصول عليه.

استطرد مراد وبدأت نبرته تتصاعد ليفتح فوّهة بركانه ولتحرق من تحرق وأطلق رصـاصـاته نحو طيور نغم المغردة بعد أن استسلم لضعفه. فحاول الحديث على قدر حجمه لا قدر أحلامه وأضاف بغضب شديد:

- حانقًا على والدك بقدر سخطي على واقعي وموقعي.

وسـط دموع نغم شـعرت بضرـورة التدخل، ثمة حُمم بركانية باتت قريبة من قلبها، تصــدها بكل ما أوتت من عاطفة، هي بين ضعفين أصبحت حصونها بالية لا تصد ذبابة فكيف الصــمود أمام غارة من موقع قلبها؟ حاولت الحديث لتخفف عنه من ثقل الجائحة -أو تتشاركها- وقالت:

- وأنا أحبك بما أنت عليه، وأريدك بحجم خوفك، وأطمح إليك بقدر اســـتســـلامك، وأتمســـك بك بحجم هروبك، لا أســـتطيع الإذعان لوالدي بدماثة، لكن علينا تدبر الأمر جيدًا، الوقت غير كافٍ، دراستي الجامعية ستنتهي بعد أقل من شهر وبطلت كل أعذاري.

- وأنا أحبك يا نغم، قالها مراد بلهجة حنونة مستعطفة.

ردت نغم في ضيق وسخط:

- لا تحدثني الآن عن الحب، أنا أعرفه جيدًا بل حدثني عن الغد.

حاول مراد اســـتيعاب حديث نغم عن الغد وما وراء حديثها فدارت الخيبة في قلبه دورتها وصـــار غريقًا بين مد وجزر لا يحرك ســـاكنًا. نهض من على مقعده واقفًا في غرفته وقال:

- هل تعتقدين أن والدك يصبر حتى ننتهي من دراستنا ويكون بيدي شهادة تعزز من موقفي؟

نحرت الحسرة قلب نغم التى تتساقط آمالها واحدة تلو الأخرى وتمنت لو أنها قالت بأن موقفك عند والدي لا تعززه شـــهادة، بل تعززه أفدنة وبيوت ومظاهر وشـــكليات،

لكنها استعصمت أن تتفوه بمثل هذا خوفًا أن تقذف بنفسها متهورة بفوهة البركان المستعر، لكنها صمتت قليلًا ثم قالت:

- لنكن أكثر وضوحًا؛ أتعتقد أن والدي سيرضى بك زوجًا لي؟

كسمكةٍ تحاول التملص من الشباك في عزة نفس وكبرياء قال:

- ولِمَا لا يرضى؟

- وفيما يرضى؟ قالتها نغم، واضحة، كاشفة وصريحة دون أدنى خداع منها للموقف الجاري.

وكزت مراد كرامته ليلملم ما تبقى منها لكنه يعلم أنها لم تخطئ، لم تكذب، لم تخدعه بمجاملات مزيفة لا تقنع كلاهما، فخاطبها قائلًا:

- الفروق لم نصنعها بل صُنعنا فيها.

- هذا لا يعني يا مراد أنها لن تحكمها وتقيدنا.

عزمت على أن تكشف آخر أوراقها علَّها تكون الرابحة وتستل سيفها من غمده وتمنحه في تواضع لفارسها المغوار يقاتل بدلًا عنها:

- أخبرتُ والدي بالحب في قلبي، فهل يمكنك أنت إخباره عمَّا بقلبك؟

انكمش مراد وصغر، تحولت ملامحه، تغيرت نظرته، هدأت حدته، تجمد بعد لهيب، أطفأت نغم النار عليه بعد أن صار مستويًا صالحًا للإلتهام، لم تتأخر كثيرًا حتى باتت أنيابها حول رقبته وقضمت بسؤالها:

- أتخاف؟!

هز رأسه كأن السماء أمطرت عليه غبارًا، وأجاب:

- لا أستطيع، لكنني لست خائفًا.

- وما الفرق بينهما إذا كانت نتيجتهم واحدة؟

- الخوف يمنعك المحاولة، أما عدم الاستطاعة يمنعك التهور.

اقشعر جسد نغم حتى أخمص قدميها وأوشكت على البكاء عند شعورها بالهزيمة والخذلان، الخيبة، الحسرة، التفريط والتخاذل، وقالت وهي تبكي غاضبة وساخطة عليه:

- رفضت الهزيمة أمام والدي فنلت أنت شرفها.

وأضافت وأسنانها تصطك حتى أصدرت صوتًا أحسه مراد:

- وهل حبي لك لا يستحق التهور؟

غصة وقفت بحلق مراد منعته الحديث لوهلة حتى قال:

- بل هذا الحب لا يستحق المقامرة.

- مقامرة!

كررت الكلمة في غير تصديق، لطمتها إجابته على صدغ القلب حتى عزمت على ردها إن استطاعت إليها سبيلًا وقالت:

- مذ أحببتك وأنا أعلم أن قلبي ساحة قتال لا ساحة قمار.

ولو كنتُ أدري أنك ستصم أذنيك عن ندائي لقصصتُ لسانى قبل أن ينطق، وا مراداه!

وأغلقت الهاتف.

****

«الحب موتُ صغير».

- ابن عربي

هل جربت الانتحار من أعلى أحلامك؟

أن تتهاوى مستسلمًا للموت بلا أدنى شفقة منك للحياة، بلا ذرة حب واحدة تحملها في قلبك حين تسقط، مشرعًا نوافذ صدرك كلها لتخرج أنفاسك دفعة واحدة كعصافير صغيرة، فتموت فارغًا وحيدًا كجرو في زقاق.

حدِّثني الآن، هل انكفأت على نفسك كوردة خانتها الشمس ونستها المياه؟ كما أن الحب موت صغير فإن الفراق إثم كبير، أن تشرك بالحب شيئًا محيدًا عنه.

الحب شعور لولاه ما خلق الله هذا الكون، لو لم يستقر حب الله في قلبك وأن تعبده حبًا لا طلبًا، وأن ترجوه بعاطفة المُحب لا الطالب ما عبدتُ الله حق عبادته.

يقول الدكتور (مصطفى محمود): «الحب هو رأس القضية، وإذا غاب ذلك الحب فإن كل العبادات والطاعات لن تصنع دينًا ولن تصنع مُتدينًا مسلمًا كان أو مسيحيًا أو يهوديًا، وما كان الصليبيون الذين جاءونا غزاة طامعين على دين -أي دين- ولا كان سفاحوا الصِرب الذين يقتلون الأبرياء على أي ملّة من ملل النصارى ولا كان إرهابيو اليوم الذين يفجرون القنابل مسلمين، ولو صلَّوا جميعًا ولو صاموا

الدهر ولو أطالوا اللَّحَى وقصَّروا الجلابيب وحملوا المصاحف ورتلوا الآيات ما بلغوا من الدين شيئًا.

الحب الذي لا يلاطف روحك فيهذبها ويسمو بإنسانيك فيرتقي بها وتُحلق في فضاء المُحبين مُحبًا لذهبت حياتك سُدى، هو الحب الذي يجعل أقل الأشياء ترضيك، ويتراقص قلبك لها وتصبح مجنون الفُتات الصغيرة. أسيرًا واقعًا في حب لن يترك مشاعرك سوى مهدرة، مفتتة، لا تصلح لشيء.

الحب أبهى في صدور الفقراء فهو يغنيهم. أن تعطي وأنت لا تملك إلا ما تعطي أفضل من أن تعطي مما تملك كثيرًا، الوردة التي عرقت لها اليد لقطفها دون طلب أروع من سلسال ذهب كان تحقيقًا لرغبتك، الخاتم الذي يشتريه شخص بكامل مرتبه ليسعدك، أثمن من سيارة فارهة لن تنقص متبرعها شيئًا من رصيده».

يقول (كمال الشناوي): «الحب جحيم يُطاق، والحياة بدون حب نعيم لا يطاق».

وعلى ذكر (الشناوي) الذي أدماه حب (نجاة الصغيرة)، هي قصة الحب التي تناولتها الصحف المصرية آن ذاك باسم (الجميلة والوحش)، كان شاعرًا وصحفيًا رقيق

الشـعور، عذب اللسـان وهو أول من قدم (نجاة) إلى الجمهور وكتب لها أجمل أغانيها، كانت تصغره بثلاثين عامًا لكنه أحبها حبًا جمًّا ظهر بين قصـائده وكلماته وهي لا تعيره اهتمامًا، حتى رآها في يوم بســيارة الكاتب الكبير (يوســف إدريس) انفعل وغضب واشتدت عليه أحزانه.

لربما أخطأ هو في حكمه وبالغ في مشـاعره، فقد كانت تراه أبًا لا حبيبًا. قصـــة حب من طرف واحد انتهت بموته واتهامها بالقتل. الجميع كان يعلم أنه يحبها إلا هي! وكانت تحبه الكثيرات ولكن قلبه لم يتعلق ســوى بها، انكوى بنيران حبها وهي لم تلتفت له.

في عيد ميلادها، أحضر العاشق الولهان كل مستلزمات الحفل صــباحًا وغادر حتى يأتي برفقة أصــدقائه ليلًا، انتظر طويلًا، فكان يظن أنها ســتختاره ليطفئ معها الشــموع التي اشــتراها هو، ولكن حدث ما لم يتوقعه، واختارت (يوســف إدريس) الـذي طبع قبلـة على خـديهـا ثم أخـذهـا في حجرة منفصلة وقبلا بعضهما، ويحدث أن يراهم العاشق لينسحب حزينًا من الحفل على أطراف أصــابعه ليكتب فيها قصــيدته الرائعة (لا تكذبي) التي حين سمعت مطلعها:

لا تكذبي إني رأيتكما معًا

ودعي البكاء فقد كرهتُ الأدمُعا

ما أهونَ الدمع الجسور إذا جرَى

من عين كاذبةٍ فأنكر وادَّعَى

قالت له بكل برود دون أن تلقي بالًا لمشاعره وحزنه:

«حلوة يا كمال لازم أغنيها».

حب فرش لك القلب بساطًا يلامس السماء، يُقبل النجوم، يراقص الغمام ويداعب السُحب. حبٌ أبصرته عينك حق بصيرة، لمسته حواسك صِدق اللمس، قبلته شفاهك حد التذوق، بات في صدرك ليالٍ حتى استوطن ضلوعك كحمامة حطت على فرع وبنَت عشًا يلائمها.

حب خرج من فانوس قلبك السحري على شكل ملاك، رفرف بين أضلعك كعصفورة، نطقت به شفاهك كأنه قصيدة كما يقول أفلاطون: «كل إنسان يصبح شاعرًا إذا لامس الحب قلبه».

حب لا حكمة فيه ولا منطق يحكمه، كما يقول التبريزي في واحدة من قواعده الأربعون للعشق:

«لا قيمة للحياة من دون عشق. لا تسأل نفسك ما نوع العشق الذي تريده، روحي أم مادي، إلهي أم دنيوي، غربي أم

شرقي، فالانقســامات لا تؤدي إلا إلى مزيد من الانقســامات، ليس للعشــق تســميات ولا علامات ولا تعاريف، إنه كما هو نقي وبســيط. العشــق ماء الحياة، والعشــيق هو روح من نار، يصبح الكون مختلفًا عندما تعشق النار الماء».

حبٌّ يصــهر روحك، يغمرُ قلبك، عنيفٌ، يحطِّم سراديبك، يخلع ثباتك، يخل بتوازنك، لا تعرف كيف ومن أين أتى، حب كما صوره ووصفه «نزار» فقال فيه:

إني لا أؤمنُ في حب لا يحملُ نزقَ الثوارِ

لا يكسرُ كلَّ الأسوارِ لا يضربُ مثلَ الإعصارِ.

****

أمام كلية التربية في جامعة كفر الشيخ، ينتظم النخيل على جانبي الجامعة كأنهن ســطورٌ، توجد مباني الكليات في حلقة مغطاة بالنجيل والأعشــاب وشــجرات الزينة، جامعة عصريــة ذات ســمعة محلية وإقليمية ودولية تتســم بالتميز والابتكار.

في يومٍ أعلنت الجامعة عن مسابقة للشعر الفصيح والعامي باللهجة المصرية، واستدعت نخبة من شعراء مصر ليكونوا لجنة تقييم وتحكيم للمتسابقين، تقدَّم إليها عددٌ من الطلاب الشعراء ما بين شعراء فصحى وشعراء عامية من الإناث والذكور من الفرق الدراسية المختلفة، وكان من بينهم مراد للشعر الفصيح، الذي رشحه أستاذه في الجامعة لدخول المسابقة؛ حيث إيمانه الكبير بموهبة مراد الشعرية وتمكنه من مفرداته.

اكتشف مراد موهبته في الشعر مبكرًا عن طريق الصدفة، حين كان طالبًا بالصف الخامس للتعليم الأساسي وهو طفل صغير لا يعي ما يكتبه، لكنه كان من الأطفال الذي يمتلكون الإلقاء الحسن من خلال الإذاعات المدرسية، فقد كان يختاره أستاذ اللغة العربية ليقول النصوص الشعرية في فقرته بالإذاعة، نمت بداخله موهبة الشعر وأحبه منذ الصغر ومارسه بعد ذلك.

دعى مراد صديقيه؛ مصطفى الطالب بكلية التجارة، وحاتم الطالب بكلية الشرطة. فقد كان يومها الحضور متاحًا حتى لأهالي الطلبة، دعاهما حتى يكونا بجانبه يشدّا من أزره، ويدعمانه من بين المتسابقين؛ لأنه إذا فاز بالمسابقة سوف

يحصـل على مبلغٍ ماليّ قدره خمسـمائة جنيه، وهو مبلغ كبير بالنسبة إلى مراد وقتها.

تصـــافح كل من مراد وحـاتم بحرارة متوجهين نحو حاتم الذي يســـترق النظر إلى المارين أمامه إناثًا وذكورًا، لم يســلم أحد منهم من نظرة متفحصــة ثاقبة، وتعليقٍ جنسيٍ ـ عابرٍ قذرٍ ومضحكٍ.

ضرب مراد حاتم بضربة خفيفة على كتفه ليوقفه عن التفحص في المارة وينتبه إليه، كان يعلم كلٌّ من مراد ومصطفى أن أحد الصـــبيان اعتدى عليه جنســـيًا في صـــغره، وتكررت العلاقة من نفس الولد، وكان حاتم خائفًا من إخبار والده المســـتشـــار ليؤذيه أو يأذي الولد الذي يمارســـها معه، حتى صارت له بعض التصرفات الغريبة، الخارجة عن المألوف.

- طالت غيبتك يا حاتم وافتقدتك كثيرًا، قالها مراد.

رد حاتم بعد أن نظر إليه مبتسمًا وقال:

- عذرًا يا صـديقي، تعلم أننا بالفصـل الأخير ووالدي قد سـن سـكاكينه نحوي لهذا الفصـل حتى ننتهي منه. وأضـاف حاتم موجهًا سؤاله لمراد:

- وماذا عن أخبارك أنت؟

وقبل أن يجيب مراد أضاف مبتسمًا وهو ينظر نحوه:

- وكيف حال أعضائك؟

تهكَّم عليه مراد وهو يدفعه بيديه للخلف قائلًا:

- بعد شهر هنقول لك يا حاتم بيه ولسه وسخ زي ما أنت.

تدخل مصطفى في الحديث بعد أن جاء مسرعًا يصافح حاتم بحرارة مخاطبًا إياه:

- أنارت الجامعة بحضرة الضابط المنتظر.

- صديقي رئيس اتحاد طلبة جامعة القاهرة بنفسه هنا!

قالها حاتم مخاطبًا مصطفى.

- جئت اليوم لحضور الحفل ولنقف بجوار صديقنا الشاعر ليربح الجائزة.

- وماذ عن جوازك الذي أخبرتني عنه في الهاتف؟

- إنها أوامر عُليا من كمال بيه يا سيدي، وهل تعلم أنني ما زلت لا أعلم شيئًا عن العروس المختارة؟

يستمع مراد إلى الحديث واقفًا أبلهًا لا يعرف عما يدور الحديث، ولم يعتقد للحظة بل لم يخطر بذهنه من الأساس أن حاتم هو ابن كمال الذي يطلب من والد نغم يديها للزواج.

ضحك مصطفى على كلام حاتم وقال:

- وهل هذا يصح يا صديقي أن تجبر مثل الإناث على الزواج، وأضاف مداعبًا حاتم:

- غير أنك لا تختلف كثيرًا عنهن، قالها وهو يضحك بصوت عالٍ.

- علمتنا العسكرية يا صديقي أن ننفذ ثم نعترض.

التفت إليهم مراد وقال لهم في استعجال ونشاط:

- المسابقة على وشك الانطلاق، هيا بنا، ووضع يديه على كتفيّ صديقيه متجهًا نحو قاعة المسرح الذي يتوافد عليه الطلاب بكثافة، فقال حاتم لمراد الواضع يديه على كتفه:

- تصدق إيدك ناعمة يا واد يا مراد.

نهره مراد بضربة على ظهره وقال:

- أنت اللي ناعم بزيادة.

****

القُرى نهارًا تشبه الجنة بيضاء خضـــراء -تسـُـــر الناظرين- حين أودع الله الجمال في الأرض بدأ بالقُرى، حين يخرج النهار من حضن الليل في ساعته الأولى تكون الأشجار والثمار والأبنية كامرأة جميلة عارية تخرج عليك مبتلًا جســـدها، تنزل قطرات الماء رويدًا، تزغزغ نشـــوتك، وحين ينسدل الليل على بيوتها يشبه امرأة حسناء ترتدي فستانها الأسود الذي يفصل تضاريس جسمها بالترتر اللامع كنجوم السماء.

جلست نغم في بلكونة منزلها شاردة الذهن، شاحبة الوجه، جريحة الروح، تنظر إلى الســـماء تتفحص السُـــحب المارة، تكســـو ملامحها الخيبة، يؤانس روحها الوجع، تلوم نفســـها على أجازتها وتمنت لو أنها تعود إلى ســـوهاج فارغة الرأس كما أتت.

والأســـئلة برأســـها في موســـم تزاوج، تنظر إلى جدران المنزل متأففة، تشعر أن هذا المكان لم يعد يعنيها، لم يعد يشبهها، انقطعت قرابتها به.

يتجول مراد في مخيلتها كســـاعي بريد بخل عليها بخطاب يطمئنها، تسأل نفسها وتضع قلبها في قفص اتهام وتخاطبه غاضبة، أرأيت ماذا فعلت بي!

جعلتني كعروس الماريونيت التي تتراقص بها الأيدي دون إرادة منها، والأنكَى من ذلك يسلبون مني حتى الشعور بما أفعله.

هل خذل مراد الحب أم خذله الحب؟ هل قام بالفعل الصحيح لينجو بنفسه من مهالك والدي؟ أم فكَّر في نفسه وحسب؟ وماذا عني؟ بين النيران المتأججة حولي تضرب جوانح روحي، لم يعلم أبي أن الحب نكح قلبي فصرتُ حُبلَى بالعواطف التي ليس لمخاضها من سبيل.

هل أمسك في جذع الصبر ليساقط عليَّ «رُطَبًا جَنِيًّا».

ماذا لو حملته بين يديَّ قاصدة أبي ليباركه؟

فيقول : «جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا» حتى تنهدت وأومأت برأسها يمنة ويسرة وقالت بين زفراتها «يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا».

ليت الناس تحلم على قدر واقعها، ألا يطمحون بالنظر لما هو أبعد من قدرة أعينهم على البصر، كيف رأيته عنتر فارسي المغوار الذي يشق الصحراء في مهمة أسطورية وشبه مستحيلة يجلب النوق العاصفير من الملك النعمان ليحصل على عبلته؟

كيف كان لي قيس الذي كتب في ليلى أعذب القصائد وأرق الكلمات حين أدماه الوله والهيام بليلاه، فأصبح يطارد

الجبال والوهاد ويمزق الثياب وينام بين الظباء ولا يأكل إلا العشب حزنًا عليها حتى جُنَّ؟

كيف صـــور لي الحب أنه عروة بن حزام الذي أحب عفراء، فطلب أبوها مهرًا لا قدرة له عليه فرحل إلى اليمن، وعاد بالمهر فإذا هي وقد تزوجت فضنى حبًا ومات.

كيف اسـتسـلمت لكلمات مراد التي تشـكلت بالمعاني الدقيقة والرقيقة، فأدخل الحب في قلبي بطريقة شـــاعرية تسللت بين خبايا نفسها.

رنَّ هاتفها؛ فحجز بينها وبين خيالها الجامح الذي يســـــــرد قصـص الحب لأبطال روايتها المفضـلين وهي تسـتحضر- في ذهنها مقولة والدها عندما أشار إلى الرواية التي كانت تقرأ فيها حيث قال:

«الحبُ يبدأ من هنا وينتهي حيث هنا».

نظرت إلى الهاتف فشـــعرت بوكزة في قلبها وبين نفور وسرور استجابت وأمسكت بالهاتف وقامت بالرد.

- ألو..

جاءها صوت مراد هادئًا كمن يحاول لملمة الزجاج المنكـــسر في قلبها، وفاجئها حين استرسل وارتجل شعرًا يمسح عن قلبها الحزن وقال:

العينُ تشتاق والحبيبُ جواري
فلِمَن أقولُ يا تُرَى أشعاري
أنامُ في الليلِ حاسمًا أمرهُ
والنَّفس تعصي في النهارِ قراري

أحسـت نغم أنه ينجح في لملمة الزجاج بدماثة، لكنها أبت ألا تجرح يديه كي يشـــعر بما في قلبها من جروحٍ، وردت عليه ببيتٍ شعريٍّ لشاعرها المُفضل فاروق جويدة وقالت:

أتُرَى يفيدُ الزهرَ بعدَ رحيلهِ
حزنُ الربيعِ ولوعةُ الأغصانِ

هبط قلب مراد في قدميه؛ حتى أنه لم يستطع الإمساك به من مناظرة نغم الشعرية له، بل من اِنتقاءها الأبيات التي ردت بها وقال:

- لقد فزتُ اليوم في مسابقة الجامعة للشعر.

حاولت نغم أن تتحكم في نبرتها حتى لا تشعره بالفرح الذي غمرها حتى ابتسمت دون إفصاح وبدت هادئة:

- مبارك عليك، أنت تستحق ذلك.

- مبارك فقط يا أنغامي؟

اِستّل مراد منها ضحكة لم تستطع كتمها، فابتسم هو الآخر، حتى قالت نغم لتغير طعم المكسب في حلقه لخسارة:

- يسعدني أنك تذوقت طعم المكسب، علَّه يكون حافزًا لك قبل رفع رايتك واستسلامك دون محاولة، وأضافت بحزن:

- فلا أراك الله ما في جوفي من طعم الخسارة.

- لم أتنازل عنكِ.

- بل تنازلت.

غضب مراد مقاطعًا إياها يرثي حاله:

- ماذا يمكن أن أقول لوالدك؟ أنا فقير معدم، أمي كانت تخدم زوجتك فزوجني اِبنتك لتخدم أمي.

حتى أســهب في حديثه تتحرك يده بطريقة عشــوائية ويدور حول مكتبه:

- الحزن يفتك بي، الجرح يدميني، الفقر يعيبني، لم أســتطع إلى اليوم أن أهادي والدتي ثمن فســتان فكيف أقدم على مهر لا يسده بيع منزلي؟

تشنجت كلمات مراد وبكت على إثرها نغم متعاطفة ومشفقة وحزينة.

- هوِّن عليك يا مراد، فقال وكأنه لم يسمع منها شيئًا.

- لا أعلم حقًا، أنا مجبر أم مخير! حياتي لم يخايرني فيها الله، لم يخيرني حين ولـدت بين أن أكون مراد ابن الرجـل الفقير الذي أشــفقت عليه الغربة من الحياة فأخذت روحه وبين أن أكون وليد الرغد وأبي ذا نفوذ وسلطان.

أعرف أن الزواج نصــيب وقدر، فهل أتعامل معه بالدعاء ليرده عنك؟ لســت مخيرًا يا نغم، أنا مجبر من ناحيتي على التوقف ومن ناحيتك على التقدم، من والدك على الرجوع، ومن والدتي على الصـمت، من الفقر على التخلي، ومن الحب على التمسك.

قاطعته نغم بائسة وغضوبة، وبصوت مرتفع يقذف كلماته شهبًا واحدة تلو الأخرى تخترق أذن مراد فتبيد جزءًا من حواسه حتى شعر أنه لا يسمع، لا يرى، لا يتكلم، لا يحس، لا يتحرك، لا يغضب ولا يهدأ، حين قالت:

- وأنا مخيرة بين موت وموت، ومسيّرة بين خسارة وخسارة. أبي يضع السكين في يدي ويخيرني بين عاطفتي وسُمعته، بين روحي ومظهره، بين حزني وسعادته، بين رغبتي ورغبته، بين قلبي وقلبه.

صمتت لوهلة وبين تشنجها وبكاءها وانتظار مراد على جمر ليعلم أيهما ستختار، حطت برأسها منكسة وقالت:

- واخترت قلبي..

****

تقترب الكاميرا من وجه رزان؛ لتبرز عينيها البنيتين كتبغ السجائر، أنفها المستقيم كالتزلج على لوح مائل وقرطين من ذهب نائمين على أذنها الصغيرة، وشفتها المكتنزة التي تشبه زاوية منفرجة، وجنتها الناعمة التي حين تسترخي تكون

حُبلى بشـهرها الثالث، وحين تبتسـم تكون بشـهرها السـادس وأسنانها الملتحمة الناصعة كقوس هلال.

تسـهب في حديثها وتروي أدق تفاصـيلها بدقة، يسـتمع الحضور إليها منتبهًا ومترقبًا وتدخل أنور المذيع بسؤاله قائلًا:

- وماذا عن علاقتك بنغم، كيف بدأت؟

اسـتندت بظهرها على الكرسي التي تجلس عليه كأنها تمددت على كرسي في مركبة فضـائية يعيدها إلى زمان مضى. وتنهدث ثم قالت:

- علاقتي بنغم كانت كمثلها مع حاتم صـدفة بحتة، كانت لي صـديقة اسـمها سـهام تعرفت عليها في إحدى المطاعم بالقاهرة وكانت تدرس بسـوهاج في كلية الآداب وأصرت علي اسـتضـافتي في جامعتها بسـوهاج وقبلت منها الدعوة حيث كنت شـغوفة خلال دراسـتي بمعرفة مصر. ومحافظاتها. نزلت الإسكندرية ذات الطبيعة الساحرة والبحر الهائج الذي تشعر بأنه يغسـل الروح، زرت أكثر من محافظة خلال سـنواتي الأربع، اسـتقبلت دعوة سـهام بحماس شـديد لرؤية صـعيد مصر الغني بـالآثـار الفرعونيـة واللوحـات الفنيـة المميزة، وأحببت خوض تلك المغامرة بين الصـحراء التي لها حيز كبير

في نفـــســـــي؛ حيث أن الأردن دولة جبلية بنيت على جبال فاحتفظت لنفسها أن تكون في القمة بين البلدان العربية.

في صـباح اليوم التالي، ذهبت مع سـهام إلى الجامعة، كانت نغم تتصـفح كتابًا دراسـيًا، منهمكة في قراءته، لا تعرف كيف تفسرـ ملامحها، دخلت عليها بصـحبة سـهام وبادرت ســـهام بالحديث معها تصـــافحها بحفاوة، نهضـــت نغم واستقبلتها في ترحابٍ شديد وقالت:

-أراكِ تطمحين لأن تكوني الأولى على الجامعة

جاوبتها نغم وهي تبادلها القبلات:

- لربما أجد شيئًا أنتصر عليه.

- ذوات الأعيان ليســوا بحاجة لهذه الانتصــارات التي تبدو في نظرهم سخيفة، هم مميزون بالفطرة.

- بل هم أكثر من ينظرون إليها لتتمم مكارم سخافاتهم.

نظرت نغم نحوي في استغراب واتجهت نحو سهام تستفسرـ منها عن وجودي قائلة:

- للمرة الأولى تأتين إليَّ بوجه حسن.

- بل أتيت لكِ بكل محاسن الشام. أجابتها سهام وأنا غارقة في خجل واحمرار وجه.

نظرت نحوي نغم وتصـافحنا فهمّت سـهام لتبادلنا التعارف وقالت:

- رزان صـــديقتي من الأردن، تدرس في كلية الإعلام بجامعة القاهرة.

- مرحبًا. قالتها نغم في ابتسامة صافية بوجه بشوش.

- مرحبا.

وضـعت سـهام يدها على ظهري وهي تنظر إلى نغم التي تبدو مشوشة الذهن وقالت لي:

- هذه نغم بنت الأكابر، قالتها وهي تضـــحك -أو ربما تحقد- لأن سهام كانت من أسرة فقيرة وأضافت:

- والدها كان مستشارًا كبيرًا.

سررت بمعرفة أن نغم من قُرى مصر وقلت لها:

- إذن الزيارة القادمة ستكون بمنزلك يا نغم، تتـــوق نفســـي لزيارة قرية مصرية.

- القرية جميعها تتشرـــف بزيارتك، نحن في انتظارك في أي وقت.

تدخلت ســـهام التي كانت تعرف عن أمر زواج نغم وموقف والدها تجاهها فقالت:

- تكون مناسبة عظيمة يا رزان إذا بتحضري معنا عرس نغم!

حنقت نغم ونظرت إليها وقالت:

- تهذين أنت، هي جنازة وليست عرسًا بالنسبة إليّ.

- مَن عاقلة ترفض ضابطًا ووالده مستشارًا؟

اندهشـت للمصـادفة وجاء حاتم في ذهني فجأة، فاسـتغربت وحـاولـت ربط الأحـداث فتـذكرت أنـه أخبرني أن البنـت التي يريد والده خطبتها له ابنة مســـتشـــار متقاعد من الريف، تحدثت في نفسي هل يُعقل أن تكون هي نغم؟

هممت بالسؤال مندفعة نحو نغم سائلة:

- ما اسم هذا العريس؟

ردت نغم دون أن تعطي انتباهًا ساخرة:

- لا أعلم اسمه حقًا.

- متى سيكون العُرس؟

أجابت نغم في امتعاض:

- للأسف بعد الدراسة بشهر واحد.

- يا لسوء حظي سوف أكون سافرت إلى الأردن!

تدخلت سهام بالحديث وقالت مخاطبة نغم:

- سوف تكون رزان ضيفتنا اليوم، وأضافت وهي تضحك.

- بالمناسبة رزان تتحدث المصرية بطلاقة.

تبسمت ساخرة ونظرت نحو نغم تملؤني التساؤلات والحيرة فقلت:

- موكتير.

ابتسمت نغم وقالت وهي تنظر إلى سهام التي ما زالت مبتسمة:

- ما زال تردد لسانها على المحطة الأردنية.

ضحكنا جميعًا وذهبنا نحو كافتيريا الجامعة لتناول بعض الأطعمة والأسئلة تتصاعد في رأسي وتحطني بلا جواب نفى أو تأكيد.

****

كان حاتم شابًا وسيمًا، متوسطَ القامة، دائريَّ الوجه، بشرتَه بيضاء، حصل في شهادته الثانوية على مجموع متوسط، قدّم أوراقه إلى اختبارات كلية الشرطة بالقاهرة خائفًا بل ومرعوبًا من افتضاح أمره، كانت نفوذ وواسطة والده تسبق أوراقه كي يمر من الفحص الطبي، عدا أنه كان يعاني تمزقًا في عضلات الشرج، وكان عنده مشكلة أخرى وهي تقوس في قدميه.

مرَّ من اختبار الفحص الطبي كما مرت غيره من الاختبارت بالطريقة ذاتها؛ حيث كلف الأمر والده مكالمة هاتفية وحيدة وبعض الهدايا المتواضعة.

والده كمال كان من الأصول الريفية لقرية مجاورة من قرية عصمت حيث كان جده عمدة القرية ويمتلكون أفدنة وبيوت كثيرة وماشية لا حصر لها، تقاعد والده في سنٍّ مبكرة قبل بلوغ الستين لظروف صحية واختار أن يغادر القاهرة ويبني ڤيلا على أراضيها وزوارق مياهها والإشراف على أملاكه، وأن يتنعم بنعمة الريف التي تحقق له استرخاء وصفاء ذهن.

كان حاتم يعلم أن غرض والده من الزواج بابنة عصمت بيه هو تبادل المصلحة المشتركة لتكون المصاهرة مكسبًا ذا حدين، من ناحية كمال تربحه انتخابات مجلس

الشـــعب ليكون نائبًا عن دائرته حيث يمتلك والد نغم قرية كاملة بأصواتها عُمّالها وفلاحيها لتقوي من نفوذه.

أما من ناحية عصـــمت والد نغم، بعد أن أحيل إلى التقاعد المبكر لظروفه الصـــحية بعد صـــدمته على ولده الوحيد في فاجعة كبيرة حيث كان صـبيًا يافعًا، دعاه صـديقه لحضـور عيد ميلاده فأصر الولد على الذهاب بسـيارة والده، وعندما اعترض عصـــمت تســـلل إلى غرفته وأخذ مفاتيح السـيارة وكان حينها يقطن عصـمت وأسرته المنصـورة ليكن قريبًا من دائرة عمله ويقضيـــ في القرية عطلته هو والأسرة، أخذ الولد الســـيارة التى يوضـــع على لوحتها وزجاجها الأمامي شـعار الهيئة ذو كفتي الميزان والنسرـ بشـــــريط مائل بلونيه الأحمر والأخضرـ، دون علم والده ليلًا سـعيدًا بها؛ ليظهر أمام أصـــدقائه بمظهر جيد مختالًا فخورًا، لكن القدر كان له حسابات أخرى معه.

كان يقود السيارة مســـرعًا لملئ نشوته ولعدم تأخيره على عيد ميلاد صـديقه، كان هاتفه بوضـعية الهزاز، وحين رن عليه أحد أصـدقائه ليحثه على الحضـور، سـقط الهاتف من جيب بنطاله وهو يرن فتحســـس جيبه وبدأ يبحث عنه غير منتبهًا للطريق.

تفاجأ الشاب بشاحنة كبيرة تصدر بوقًا وتشعل نورها العالي بوجهه حاول الانحراف عن الطريق والانتباه، لكن سرعته كانت فائقة فلم يتمكن من ضبط عجلة القيادة واصطدم بوجهها، فلم يخرج من السيارة غير متوفيًا.

وبعد مرور هذه الصدمة على عصمت التي أخذت بصحته وعافيته تقاعد عن العمل، وذهب بعد بيع منزله بالمنصورة إلى الجلوس في منزل والده الفسيح بحديقته وأشجاره، يشرف على أعمال الفلاحين في أرضه التي ورثها، كان ابنًا واحدًا على أختين؛ إحداهن توفت بمرض السرطان، والأخرى تجلس مع زوجها في الإسكندرية يتبادلا الزيارات بين الحين والآخر. يوقره أهل القرية احترامًا وخوفًا من بطشه؛ لأنه وإن كان متقاعدًا فما زال نفوذه عاملًا من خلال علاقاته وأصدقائه وكان رجلًا لطيفًا من أهل القرية وأعيانها على وجه الخصوص، يؤازرهم في مصائبهم ويحضر بعض أفراحهم حتى يحكم قبضته على قلوبهم، ويكون كبيرهم الذي يلجأون إليه في مخاصماتهم مع بعضهم البعض من خلال الجلسات العُرفية التي تشتهر بها القُرى المصرية في أغلب النزاعات بين الأفراد لرد الحقوق لأصحابها دون محاباة، وتختلف شكل المحاكم العرفية باختلاف البيئة التى تتواجد فيها، كما أن اختلافها هذا بسبب طبائع البشر فى الأماكن والأزمنة

المختلفة. الأهم أن هدفها واحد وهو إيقاف نزيف النزاع الدائم فى المشكلات الصغيرة والكبيرة، وخاصة المشاكل التي لا تستطيع المحاكم الرسمية التي تأخذ ردحًا من الزمان للفصل في قضية أو اعتداءً على حلها بشكل جذري.

تُدار الجلسات حيث يتم الاتفاق على أن يحضر كل طرف من الأطراف عدد متساو من المحكمين -مثلًا- ثلاثة أطراف لكل خصم، وغالبًا ما يكون صاحب المكان الذي ستدار فيه الجلسة هو المرجح لجميع الأطراف، ثم يتم بعدها الاستماع إلى صاحب الشكوى (المجني عليه) ثم إلى المشكو بحقه (الجاني)، ثم يقوم القاضي والمحكمين بعدها بالتشاور في غرفة خاصة من أجل أن يتم محاولة الوصول إلى ترضية يقبلها الطرفين وكان عصمت بيه يعمل في قريته مُرجِّحًا أي قاضيًا عُرفيًا.

فكانت حلقة التواصل بين كمال وعصمت هي تبادل المصالح في حفظ نفوذ عصمت من خلال كمال ومعارفه، وضمان كمال لأصوات الفلاحين والعمال بالقرية مقعدًا له في مجلس الشعب، وما من سبيل لغلق هذه الحلقة حتى لا يتم تمزيق أطرافها إلا بالمصاهرة.

****

دفتر متوســـط الحجم فارغ إلا من بعض الوريقات التي يدوِّن فيها مراد أفكاره الشـــعرية وقلم بجوارها، تنتظر الورقة البيضـــاء فض بكارتها وينتظر القلم يدًا تمســـك به ليقوم بمهامه.

يجلس مراد على كرسي مكتبه الخشبي يضع رأسه بين راحتيه كمن يريد أن تتزن أفكاره محاولًا كبح جماح الكلمات المتناثرة في رأسه كصياد يلقي شباكه في الماء متربصًا لسمكة كبيرة يحكم قبضته عليها لتسد رمقه، الكاتب حين يشرع في الكتابة يكون كامرأة متوترة مترقبة نزول الحيض عليها كي تهدأ. لا يعرف ماهية ما يود البوح به چل ما يعلمه هو احتياجه لأن يبوح، فكّر أن يكتب رسالة لنغم ليشعل شمعة في ذروة عتمتها تضيء خلف صدرها أو تزيدها إحراقًا.

أمســـك بقلمه وحركه بين يديه حتى بلغ القلم نشـــوته فقام بقذف الكلمات دفعة واحدة كاتبًا:

اكتبي لي هجاءً يفتت هذا الصمت الثقيل الراسخ على صدري، لأقع رفاتًا على أطراف ثيابك معتذرًا، منكسرًا، وخاشعًا. أتوسل إليكِ ما من أرض تحملني ويلفظني الحب من رحمه دون

اكتمال نموي جنينًا مشـوهًا، كالشـاةِ المُعلقة من سـاقيها في جذع اليأس تنهشـها الذئاب كسـبية سـيقت بعد غزو ليغتنمها الغزاة، اكتبي لي عتابًا وحقَّريني أيما شئتِ، تضربني الهزيمة من كل جانب، ينخر ثباتي الفشـل، يكمم فاهي الخوف، لا تتركيني نازحًا بلا وطن، قد حطم اليأس دياري وشرد عواطفي وهدّم الأحلام فوقي؛ فصرـت تحت أنقاض الرحمة مغشـيًا عليَّ، لا تتركيني للموت، ثمة حياة فرغت مني وما فرغت منها، أرجوكِ أن ترفعي عني هذا الصـخر لا يمكنني التنفس وانقض الغبار على عيني فلا يمكنني الرؤية، أنتِ من أشـعلتِ الثورة وأنتِ المسـؤولة عن خسـارتي، حماقتي، ثرثرتي وجنوني، ألم أُخبركِ حين يهاجمني الحب أغدو شـعبًا ثائرًا حانقًا، أتهرب منه من كل السـبل فيقابلني من الجهة الأخرى، أختبئ منه فيكشـف عن موقعي، حاولتُ التملص منه كثيرًا لكن عينيكِ أحكمت القبض عليَّ، ألم أُخبركِ أن الحـب للفقراء يغني قلوبهم لا جيوبهم وهو أشـبه بوضـع مريض تحت التنفس الصـناعي ليعيش بعض لحظات، كان جهاز تنفسك ثريًا مما لا يستطيع مثلي التنفس من خلاله بغير السرقة، هو الحب الذي صوّرته غـادة السـمـان «وأعرف أن رحيلـك محتوم، كمـا حبـك محتوم» ألم أُخبركِ أني أقبل بالنفي والطرد والتوبيخ والتصاق التهم بي، على أن يعاملني والدك كالماشية، مجبرًا على الأسف،

نحن ثُلة الفقراء لا نملك رقابنا قدر ما نملك كرامتنا تغنينا وتسمننا من جوع.

يا نغمي!

على بُعد خطوة من انزلاق الحب من بين يدينا، وقفنا معًا، فوق فوهة الفراق، كان شجارنا يشبه حبنا كثيرًا، يدٌ تدفع ويدٌ تحتضن، عينٌ جامدة وعينٌ تتوسل، نظرةٌ حادة ونظرةٌ ذابلة، صوتٌ حاد وسكوتٌ تام، طرفٌ يُصرّح وطرفٌ يسمع، شخصٌ يتحدى وشخصٌ يتنازل، قلبٌ متكبر وقلبٌ منذهل، على بُعد خطوة من التشبث فيكِ خذلتني يدي.

يا نغمي!

في محاولة للغرق قد لا تنجو بفعل السباحة ولكنك قد تنجو بأن تفرغ طاقتك من أمل النجاة فتصبح فارغًا جافًا ليتحمل الموج مشقة حملك إلى الشاطيء.

وأنا اخترت الموت بقبضتي دون تدخل من سلطان والدك وزبانيته، هو الموت كما رواه الدرويشيّ:

هكذا متُّ واقفًا

واقفًا متُّ كالشجر!

هكذا يصبح الصليبْ

منبرًا.. أو عصا نَغمْ

****

نغم قارئة جيدة ومثقفة تلتهم الكتب التهامًا، تقرأ في الأدب لتأدبّ روحها وفي الشعر لتمرن حواسها على التذوق، في الفلسفة لتنمي حاسة التأمل وفي الفكر ليبقى عقلها يقظًا، تحب الروايات العاطفية كي تجعل عاطفتها دومًا مرنة، تضيف على جمال الخلقة جمال الفكر، على فراشها الوثير، قرأت رسالة مراد وهي تشعر بأن الأمور آلت إلى نفق معتم لا سبيل من الاستمرار فيه فعزمت على الرجوع، رمت هاتفها بعيدًا، حاولت النهوض كمحاولة منها لفك سحر كلمات مراد عنها وقامت في غيظ تحضر حقيبتها عازمة على السفر، مقررة حين تستقل الحافلة المتجهة نحو سوهاج لتكمل فصلها الدراسي وتحصل على شهادتها أن ترسل رسالة نصية إلى مراد بعد أن شعرت أن لا جدوى من الحديث.

هنالك إناث يفضلن الرسائل على المحادثات، يمِلن إلى طريقة الحب الكلاسيكية، يشعرن أنهن خلف ستائر

محكمة تمكنهن من الشرح والإيضاح والتعبير دون مقاطعة، على جمع الكلمات دون تفرقة، تشعرهن بأنهن غادة السمان وحبيبها غسان كنفاني، يبدين مشاعرهن وعواطفن بطريقة نثرية رائعة، يبدين جمالهن دون مساحيق، يظهرن ثقافتهن لا أجسادهن.

دومًا ما كانت على قناعة أن جمال الأنثى برأسها لا بوجهها، وأن أنثى مثقفة قادرة على إغراء قبيلة من الرجال فضلًا عن غانية، وأن استعراض ثقافتها أفتك من استعراض مفاتنها، من قال أن الجمال بالوجه فحسب؟ وجه الأنثى لم تخلقه، هي فقط ترعاه حتى يرمي الدهر فيه شيخوخته وقسماته وتجاعيده فيزول، وإنما جمال الفكر دائم لا يزول، كانت تندهش حين تقرأ عن مي زيادة كيف أحبها قمم رجال عصرها، كيف عصفت بقلوبهم عصفًا حتى طافوا حول محرابها الأدبي دوران الكواكب حول الشمس، إذ كانت مثقفة إلى حدٍّ بعيدٍ، بل كادت الثقافة العربية أن تجتمع في ديرها كالراهبات، كانت تعقد صالونها الأدبي كل ثلاثاء من كل أسبوع، صالونها الأدبي الذي كان مزارًا يقصدة نخبة الكتَّاب وأرباب القلم وأئمة الفكر. وُلِدت مي زيادة بمدينة الناصرة في فلسطين، واسمها الحقيقي ماري، لكنها اختارت لنفسها اسم

(مي) الذي اشتهرت به في عالم الأدب، وانتقلت مع أسرتها إلى القاهرة، ودرستْ في كلية الآداب.

هي التي قال فيها أحمد شوقي: «أساءل خاطري عما سباني أحسن الخلق أم حسن البيان»؟

ما إن يذكر اسم (مي) إلاَّ ويتبادر للأذهان اسم جبران، فرقتهما الحياة وجمعهما التاريخ، قلبها قد ظل مأخوذًا طوال حياتها بجبران وحده، رغم أنهما لم يلتقيا ولو لمرة واحدة، ودامت المراسلات بينهما لعشرين عامًا، كتب لها ذات غربة ووحشة قائلًا: «أنا أعلم أن القليل من الحب لا يرضيك، كما أعلم أن القليل في الحب لا يرضيني، أنت وأنا لا ولن نرضى بالقليل. نحن نريد الكثير. نحن نريد كل شيء. نحن نريد الكمال. أقول يا ماري إن في الإرادة الحصول، فإذا كانت إرادتنا ظلًا من أظلال الله، فسوف نحصل بدون شك على نور من أنوار الله».

إن كل من كان يحضر صالونها كان يعيش بخياله قصة حب، هي مثال للجمال الخالد، السرمدي والأزلي، حتى سميت مراسالاتها إلى الكُتَّاب بعد وفاتها (بأدبِ المراسلات).

وبين وصلة من أفكار نغم المحتدمة، انتبهت للباب الذي ينفتح ورأت والدتها تدخل بلا استئذان إلا من دقة

واحـدة، رأتهـا والـدتهـا تلملم ملابســـهـا وتحضرــ حقيبتهـا فاندهشت وقطبت حاجبيها وقالت:

- ماذا تفعلين؟

- أستعد للرجوع إلى الجامعة، جاوبتها نغم متحاشية النظر في عينيها وتتناول ملابســـها من خزانتها تضـــعها في الحقيبة المفتوحة فوق الفراش.

- هل والدك يعلم بقرار رحيلك الآن؟ قالت والدتها وهي تنظر نحو الحقيبة وتدنو منها:

- أخشىـ من غضــبه يا نغم، أو أن يعتبرها طريقة للتعبير عن الرفض.

نظرت نغم وتوقفت يدها داخل الخزانة والتفتت نحو والدتها قائلة بلهجة ساخرة:

- يســـعدني أنني في هذا البيت قادرة على التعبير عن شيء لا الإفصاح به.

- وماذا عن قرارك في زواجك من ابن كمال بيه؟

نهضـت نغم بينما كانت ترتب ملابسـها في الحقيبة، نظرت في عيني والدتها بنظرة جامدة قائلة:

- لم يترك لي أبي مساحة أقرر فيها بشأن زواجي!

التمست والدتها طرف ثوبها وفي استعطاف بالغ قالت:

- والدك أنا أعرفه أكثر منك، هو لم يرِد إجبارك، لكنه يريد لك الخير والسعادة، وهذا الزواج به خير كثير ينتظرك.

- بل الخير ينتظره أبي لنفسه، قالتها نغم حانقة غاضبة.

- لا تكبرين الأمور لسنا على مائدة للتفاوض.

- تقصدين ليس لنا رفاهية التفاوض!

ردت والدتها وهي تربت على كتفيها وتحاول بشيء من الأسف أن تهوَّن عليها، فهي تشـــعر بعجز ابنتها كما تشـــعر بعجزها وقالت:

- اذهبي في ســلامة الله، وحين عودتك تكون المياه عادت إلى مجاريها وهدأت أعصـــابك، ولربما اســـتطعت أن أســـتأنف الحكم معه.

أغلقت نغم حقيبتها، وأغلقت معها الحديث، وقالت وهي تنكفئ على حقيبتها باكية:

- صدر الحكم قطعيًا وأصبح غير قابلٍ للطعن!

****

في سكون ليلةٍ هادئةٍ، كان القمر فيها متقاعسًا فامتد في سباته ولم يسهر ليسامر بعض النجمات المتلألئة في السماء، خيَّم الصمت أرجاء القرية عدا نباح الكلاب وصوت الديكة. متمددًا مراد على حصير أمام منزله بجلباب بلدي كان لوالده وسُترة بداخله، يستند على الحائط باسطًا إحدى قدميه ومستندًا على الأخرى، يغيب في شتات من أمره وتصول وتجول الذكريات والمسامرات والأحاديث الطويلة الجميلة بينه وبين نغم فتختطف منه ابتسامة ويخطف الحزن قلبه، عيناه ذابلة ووجهه شاحب قد علم أن نغم غادرت القرية في الظهيرة متوجهة إلى سوهاج، دون حديث على غير عادتها؛ مما أشعره أن في الأمر ثمة نهاية تفصلهما فجلس لا يقوى على فعل شيء آخر، ما يمكنه فعله هو أن يذهب قاصدًا والدها، لكن هذا الفعل فيه ضربًا من جنون إن لم يكن كل الجنون، وبين حيرته وشروده انتبه لهاتفه الذي يعطي تنبيهًا لوصول رسالة نصية، حين أخرج هاتفه من جلبابه ونظر فيه فوجد الرسالة من نغم؛ تسمَّر، تردد، تأوه، تمايل، تشنج، تلجلج، ارتبك واختل توازنه، يعلم أن هذه الرسالة لا تحمل إلا معنيين ليس لهما ثالث، الجنة بنعيمها أو النار بسعيرها، لامست يديه الهاتف أخيرًا وقام بفتح الرسالة، ابتلع ريقه أولًا، وحدَّق في الهاتف وبدأ يقرأ رسالتها بنبرة

حزينة وجافة لن ترطبها كل مياه الترع التي حوله لو ألقى نفسه فيها.

«عزيزي مراد..

ما أراني إلا تائهة، ينصـــبُ الخوف نصـــابه على قلبي ويحكم أوتاده بين ضلوعي، أضرم أبي النيران في صدري ودلوك كان جافًا فارغًا بخيلًا في إخمادها، فلو تحســـســـت كلماتي بيديك لاحترقت أناملك ولو اسـترقت السـمع بقلبك لسـمعت طقطقة أضـــلعي من لظاها، يضرـــب القلق قلبي بلا حياء أو شـفقة، يمزِّقُ الليل سـتائري ذلك الجَحود الذي لم تشـفع لنا عنده ليالي الهوى، تنفك أوصـــالي فلا تحملني ســـاقٌ، يمر عقرب الســاعة متســكعًا على مأســاتي، ينفض ثباتي وتغزوني الفوضى كنـادل يحط الخمر في بئر فســـيح فلا يرَى مـارًا سكرتي...»

توقَّف مراد لومضـة من الوقت يمسـح بها أدمعه التي تشعل خديه نارًا، وصارت رؤيته ضبابية فقد غرقت الحروف بعينيه كما غرق هو في نشيجه وألمه وأكمل قراءة الرسالة:

«كشـجرةِ اللبلابِ أنا، أختنق حول روحي وألتف على نفسي، كعازف نايّ أنا، يبلغ الألم حنجرتي فيضن المستمعون

على نغمتي بـالبكـاء، كمهرجـة أنـا، كراقصـــة على الحبـال، كبهلوانية كلما ترنحت وسـقطت مرتطمة على وجهي تسـاقط الجمهور ضحكًا.

تُرى من يحمل معي هذا الألم! أو نصـــفه على الأقل! أبدو أمامهم هادئة كقبور الموتى لا يعلمون عن حالي شـيئًا، لا أحـد يـدري عن غرفتي المعبأة بـالبكاء ودموعي الحـارقـة التي يســترها الغطاء، وجدراني المائلة من كثرة الإتكاء، لا يعلم أحد يا عزيزي!

تأخـذني التوقعات إلى القلق، تذروني الاحتمالات إلى حاضرٍ مبهمٍ ويتركاني مع واقع لا يجد بقلبي ســوى الضــغينة والسخط، فيحطني مفككة، منهكة ومنهية.

يا عزيزي النساء يخلقن الحب والرجال ترعاه».

قرأ مراد رســـالة نغم كعقدٍ تنفرط حباته واحدة تلو أخرى، كمن يرقص من فرط الألم، يحاكي روحه أن ثمة فرصـة أخيرة، بل وحيدة أمامه، لا ضرر إن تعثر الحب حتى يصـــل مبتغـاه، بـل لا خير فيه ولا صـــلاح إن لم يتعثر. خيط رفيع يمسكانه معًا تشتعل من تحته شمعة الظروف، الشموع تشبه حياته كثيرًا في ضآلة حجمها، فلماذا لم يكن شـمعة قادرة على إحراق بلدة كاملة، لم يكن بمقدرته أن يحـافظ على ضـــوء

الحب في قلبيهما فأشعل نيرانه في جوانحهما معًا، كان ضعيفًا يعلم أن النساء كالشموع يشعلهن الاحتواء، ولكن يديه لم تتحمل الحرارة فهبطت تاركة الشمعة في مهب الريح.

النساء يفضلن الموت بكرامة الشموع، واقفة مشرأبة عنقها، كلما أحرقهن الحب توهج النور منهن.

****

يعيش مراد أيامه ولياليه على وتيرة واحدة من الألم والحزن، بلا رغبة أو طاقة في مجابهة الحياة، يحوم اليأس حول رقبته كأفعى، لا يستطيع إلقاء اللوم على نغم فهي تراه المتخاذل، تقدر وضعه وترثي لحاله لكنها لا تستثني يديه من زمرة اللذين أقروا طعنها في القلب، وهو متعاطف معها، مقدر ما تمر به ولكنه لا يستثنيها ممن أقروا صلب الحب بقلبه ووضع عواطفه علي مقصلة للجلد والسحل، كلاهما يحاولان تقاذف تهمة الخذلان على بعضهما البعض.

تتجول فكرة في رأسه أن يطلب لقاءها، لكنها لا تجيب على هاتفه بعد أن حاول الاتصال مرارًا وتكرارًا، فأمسك

بهاتفه ليرسل لها رسالة هي السبيل الأخير لديه، لم يتردد كثيرًا وكتب مرسلًا إليها:

«لن أقول عزيزتي، كما فعلتِ، بل أقول حبيبتي نغم.. قرأتُ رسالتك فحزنت مرة وفرحت مرة، حزنت من الأسلاك الشائكة التي تقف في حنجرتك محاولة كلماتك الهروب دون أن ينتبه لها عساكر عقلك، دون أن تمزقها الأسلاك فتخرج دامية من قهر الإفصاح، من مخالب الوجع إلى أنياب الشوق.

وفرحت مرة، شعرت بأن بساط العشق ما زال عالقًا بيننا يناديني امتطي أيها السندباد، الأميرة الحسناء في معتقل الخيبة حررها، اخلع عنها الحزن لتغدو أمامك عارية من الألم، اكشف عنها رداءَ القهر ليواجه ظهرها النور كي يبرأ من ضرب الاحتمالات واتلُ على صدرها آياتَ الحب خاشعًا، راكعًا، ساجدًا، باكيًا، ولا تنهض قبل أن تضع يديها على رأسك تمنحك الغفران؛ لا بد من لقاء يجمعنا، سوف أنتظرك بعد غدٍ في المقهى ذاته.

****

كانت نغم على أتمِّ الاســتعداد مُبكرًا ليتقابلا، أخبرت صـديقتها ســهام أن تدوّن المحاضرات التي لن تحضرـها نغم أثناء غيابها وقد أخبرتها أنها ذاهبة للقاء مراد. قضــبت ســهام حاجبيها وقالت:

- أعتقد أن لا فائدة من هذا اللقاء وقد بات الأمر محسـومًا إن لم يكن من خلالك فمن خلال والدك!

جاوبتها نغم وهي تضع على شفتيها الملساء أحمر الشفاه، لم تعِر انتباهًا كاملًا لحديث ســهام الواقفة خلفها تنظر في المرآة وانشغلت في هندمة ثيابها:

- لا أعلم حقًا، لكن قلبي أخبرني بضرورة الذهاب لربما في الأمر من جديد أراد أن يخبرني به.

- وأين عقلك؟ سألتها سهام وهي تجذبها نحوها.

- ما زال في عرينه، يؤلمني زئيره ولكن إلى الآن قادرة على كبح جماحه وترويضه.

- إذًا انتبهي منه على قلبك جيدًا حين يخرج من قفصه.

وأضافت:

- ماذا لو ظل مراد عند موقفه؟

ردت نغم في اســـتســـلامٍ، كأن كل شيء بات محســـومًا وأنها وضعت كل الخطط التي تحجم مناورات مراد معها وقالت:

- حينها سألقي قلبي بيدي بين أنياب عقلي.

****

ظل مراد طوال الليل ســـاهرًا يرتب أفكاره وينســـق كلمـاتـه جيـدًا، لا يعلم بمـاذا أراد حقيقـة في لقـاء نغم! علَّـه الشوق أو يحاول اكتساب وقت تمهله فيه لمقابلة والدها بعد انتهاء الدراســة، لا يدري غير أنه أحب لقاءها فأحبت نغم هي الأخرى لقاءه بعد إرسالها رسالة مقتضبة قالت فيها:

- ليكن اللقاء غدًا.

تأهَّب مراد واسـتيقظ مُبكرًا للقاء نغم، أقالته السـيارة ذاهبًا إلى القاهرة، في الســـاعة الواحدة ظهرًا وصـــل مراد قبل نغم التي أخبرته أنها بضـــع دقائق وســـوف تصـــل، جلس في المقهى الذي سبق وأن جلسا فيه معًا المرة الماضية ينظر إلى ساعة يده مرتبكًا لا يدري من أين يبدأ وفيمَ ينتهي؟

وصـــلت نغم بعد دقائق قليلة من تواجده، قام من مقعده يصـافحها، كان السـلام جافًا لا روح فيه، أحس مراد أن عليه مجهودًا جبارًا كي يجعل نغمته تغدو فراشـة تُحلق فوق كتفيه كلقائهما الماضي، بادر وهو يحاول الابتســـام نحو النادل الواقف على مقربـة منهم بـإحـدى الطـاولات مشـــيرًا إليـه بالمجيء:

- إذا سمحت! أريد كأسين من عصير الفراولة.

قاطعته نغم وهي تنظر إلى النادل عابسة الوجه وقالت:

- عذرًا، أريد كأسًا من الفراولة وكأسًا من عصير الليمون.

تلعثم مراد وارتبك، كانت مبادرة نغم صـاعقة توحي بأن شـيئًا ما انفصل لم يعد يربطهما.

الحب ينمو من التفاصـيل ويتغذى عليها، وقد تكون أتفه تفصـــيلة فيه تغيير بمجرى مياه الحب قاطبة، وقد خُلِقت حواء من تفصيلة الضلع في جسم آدم، فظل إلى اليوم جنس حواء يقدس التفاصـــيل ويمنحها ما تســـتحقه من الاهتمام.

أزاحت نغم السـتار عن أفكاره وكانت أكثر هدوءًا، ونجحت في إظهار ذلك وقالت في مبادرة منها لعدم إهدار الوقت:

- لماذا طلبت لقائي؟ جاء سـؤالها غليظًا، قاضـبة حاجبيها لا تعطي ملامحها أي انطباع غير الجدية.

- دائمًا أحب لقاءك ليس في الأمر جديد، رد مراد بنبرة هادئة.

- الأمور ازدادت سـوءًا يا مراد، أخبرتني والدتي في مكالمة أن والدي تحدث مع صديقه بشأن زواجي والأنكى من ذلك أخبره بموافقتي دون حتى رؤية ولده وتم الاتفاق على اتمام الزواج بعد انتهاء دراستي مباشرة حتى دون انتظار النتيجة.

جلاد لا يكف عن سـحل قلب مراد مع كل كلمة وإيماءة منها، مع كل نظرة كأنها ترميه بحجارة من سـجيل تخترقه وتمزق ما بين أحشـاءه، اقترب من الطاولة التي يجلس عليها وقبل أن يتحدث صـمت لوهلة كان يضـع فيها النادل العصير أمامهم حتى ذهب وقال:

- قلبي ينفطر من الحزن ولا شيء يشـفع لي غير الحب، أنتِ كوكب أبعد من أن تلمسك يدايّ.

ردت نغم في سرعة وطلاقة وعيناها ترقرق بالدمع باسـطة يديها نحوه لتلمس يديه:

- الكوكب يلقي بنفسـه بين يديك، لا تترك كوكبك يذهب سُدى، فقط تشبث.

شعر أنه ضئيلٌ جدًا أمام ثورة مشاعرها وتمسكها، أحس بأن ثمة غصة تقف بحلقه، حاول أن يبدو منطقيًا وقال:

- تميزت الكواكب في ابتعادها عن البشر.

ردت نغم وهي تتراجع بيديها وكأنها فهمت ما تعول عليه إجابته:

- إن لم تكن من سلالة الكواكب، فكن من سلالة الرجال.

اكفهر وجهه واستشاط غضبًا، وصعدت دورته الدموية دفعة واحدة تتقد في عينيه بعد هذه الرصاصة التي خرجت من فمها إلى كرامته مباشرة، كمن أوقد النار تحته وهو يغلي كالقدح، هربت الكلمات من حلقه كالجرذان التي رأت مصيدة وابتلعها على مضض كغصة وقال غاضبًا:

- أنا من أحقر السلالات البشرية وأفقرهم وأذلهم، لكن لا يعطيكِ هذا الحق في توبيخي.

- بل تحفيزك.

- لا يمكن أن تجتمع الكواكب والبشر في فراش واحد، لا يمكن أن تدنو.

- فاصعد أنت.

- لا أستطيع.

- بل لم تحاول.

- ماذا وإن باءت بالفشل.

- فقد نجحت في عيني.

- ليس الأمر بهذه البساطة، رد مراد مسترسلًا بعد أن ضبط جلسته وأضاف:

- أعلم جيدًا قدر محبتك لي وتعاطفك لكنها الحقيقة، الحقيقة التي لا مهرب منها ولا مفر، لا يمكنني التقدم إلى خطبتك وقد صارت المنافسة عليكِ محتدمة بين صراع الطبقات، بين من يملك الدنيا ومن لا يملك قوت يومه وأنتِ تعلمين ذلك، وأن والدك بكل ما ينظر إليه سوف يراني أصغر من حشرة في حديقتكم.

بدا مراد منفعلًا وأضاف:

- أنا أصلح لوالدك مزارعًا جيدًا وخادمًا نشطًا لا صهرًا، بل لمجرد الفكرة عبث.

تحسست نغم يديه لتخفف من وطئة الحزن في نفسه وقالت:

- الحب لا يعترف بكل هذا يا مراد، الحب أسمى من هذا وذاك، الحب أغنى من جيوبهم وأنقى من أفكارهم، الحب ينتج من الظروف غير المألوفة ونحن تفاعل هذه الظروف.

قاطعها مراد قائلًا:

- الحب عند والدك له ميزان، يقاس بالأفدنة لا بالعواطف وأنا جرثومة في ميزانه لا تُرى بالعين.

علمت نغم أن مراد يستلسم لضعفه وخوفه وأنه لا جدوى من الانتظار أكثر من ذلك وأن عليها الذهاب وقالت:

- هل هذا كل ما لديك؟ وما قطعت كل هذه المسافة لتخبرني به؟

- يؤسفني أن يكون كذلك.

اغرورقت مقلتي نغم بالدموع وباتت على شفا خطوة من الانهيار، حاولت للحظة الأخيرة أن تستعطف الحب فيه ليقوى وتحسست يده وقالت:

- جئتُك اليوم لأحقن دماء الحب بيننا.

سحب مراد يده بهدوء كأنه يسحب الهواء عن صدرها وراح ينظر نحو النافذة إلى الفراغ كأنه ينسحب من معركة بات فيها خاسرًا لا محالة، فعزم على حفظ ماء الوجه وشعر أنه لا بد من إنهاء الحديث، بل وإنهاء كل شيء وقال متحاشيًا النظر إليها:

- وأنا جئت لإراقته.

****

«فليكن همك السعي لا الوصول»

شمس التبريزي

بعد مرور شـــهر ونصـــف على لقاء مراد ونغم الذي انتهت بعده المكالمات والمراســلات والتزمت نغم بصــمتها، واحتضـن مراد سـكينته التي طعن بها قلب نغم، يعيشـان أيامًا صــعبة ومرهقة، كلاهما عائد منكس الرأس، يحمل الخيبة في صـــدره ويكويه الفراق لظى، طيور الأحلام تصـــيدتها بنادق الواقع، أطفـأت توهج الحـب حتى حـال رمـادًا تـذروه ريـاح العادات والأعراف، عادت نغم لتضـــع قلبها بين أنياب عقلها كما وعدت سهام، ورجع مراد ليضع نفسه بين مخالب الغربة كما وعد نفسه بعدم البقاء.

من أطلق رصـاصـة الرحمة على الآخر؟ كلاهما فاعل ومفعول به، ظلَّت الكواكب بموضِـعها في ثُرياها، وظل الآدمي في الثرَى ناظرًا من بعيد.

يجلس مصـطفى حزينًا بعد مكالمته مع حاتم، يضرب برأسـه عرض الحائط لا يعلم كيف يتـــصرف في هذه الطامة الكبرى؟ كيف يخبر مراد بأن العريس المتقدم لزواج نغم هو حاتم صـــديقه؟ ماذا يجب أن يفعل بين جحيمين متقدين يقبع ساكنًا؟

قال في نفسه:

- لا بد أن أخبر مراد كي لا يتصرف تصـــرفًا أهوجًا يلقي به في غياهب النسـيان، لم يخبر مصـطفى حاتم عن معرفته بعلاقة مراد ونغم، وأسرَّها في نفســه حرصًــا منه على جميع الأطراف خوفًـا من بطش حـاتم الـذي أصـــبح ملازمًـا وزينـت كتفيـه النجمة، وعلى مراد الذي اســـتعد للســـفر بعد أن قام أخو مصطفى الكبير بإرسال عقد عمل له، ونغم التي لم تعرف عن صداقة حاتم ومراد شيئًا، وحاتم الذي لا يعرف عن علاقتهما شيئًا، شبكة معقدة كخيوط العنكبوت اجتمعت في مصادفة غريبة.

يسـأل حاتم مصـطفى عن نغم بما أنهم كانوا زملاء في الدراسة، ويعيشان في قرية واحدة، كان مصطفي طالبًا مجتهدًا في دراسته ودخل جامعة القاهرة يدرس في كلية الهندسة.

- نغم! ماذا تريد من نغم يا حاتم.

ضحك حاتم وقال في ضحكته العالية:

- هي العروس يا صديقي.

- العروس!

- ألم أخبرك مسـبقًا أن والدي تقدَّم لخطبة فتاة؟ هي نفســها ابنة عصـــمت بيه التي كانت تدرس معنا في مرحلة التعليم الأساسي.

جاوبه مصطفى مندهشًا:

نعم أعرفها جيدًا، لكن لا أعلم عنها شيئًا، تدرس بجامعة غير جامعتي وسُــمعة والدها تغنيك عن الســؤال، لكن لماذا نغم بالذات؟

استغرب حاتم من سؤاله وحاول مستفسرًا:

- هل تعلم عنها ما يمنعني من الارتباط بها؟

أجاب مصطفى متخبطًا في كلماته:

- لا أقصـد ذلك؛ لكن قصـدت هل تربطكما علاقة عاطفية أو ما شابه؟

ضحك حاتم وقال:

- إلى الآن لم يربطنا شيء، لكن في الأيام القادمة سـوف يربطنا الميثاق الغليظ، وأضاف:

- اتصلت كثيرًا بمراد ولم يجِب؟ قالها حاتم.

تدخل مصطفى مقاطعًا له في لعثمة ولهفة.

- لا لا، مراد أعتقد أنه لم يرَ الهاتف، فهو يستعد للسفر.

- السفر؟ قال حاتم مندهشًا.

- نعم السفر قد أرسل له أخي عقدًا للعمل بالأردن.

- لن يحضر زفافي إذًا؟

رد مصطفى سريعًا:

- بلى ســـوف نحـــضر، وأضـــاف وهو يتخبط في كلامه، لا يستطيع أن يترك صديقه في يوم كهذا لا تخف سوف يحضر، وأضاف مصطفى مكررًا على حاتم:

- لا تخبره أنت، ودعني أخبره، أنا في طريقي ذاهبًا إليه.

****

كان مراد جالسًـــا في غرفته يقرأ في كتاب عن المذهب الصوفي، ممسكًا به بين بيديه محدقًا فيه يقرأ بعينيه السطور، يحب القراءة منذ صـــغره ويتطلع في شـــتى المجالات، يؤمن بالروحانيات والإشـارات، يحب المتصـوفين ولا يتبع طرقهم، يقرأ في زهـدهم وتقشَّـــفهُم، حيـاتهم وأقوالهم، فلســـفتهم وتأملهم، روحانياتهم وصـــبرهم، ولكنه كان ينكر عليهم بعض أفعالهم وأقوالهم، يقرأ عنهم ولهم بعقله لا بقلبه لا يُصـــدق تصـديقًا بحتًا ولا يمنع نفسـه من الإعجاب بهم، كان مؤمنًا أن كل عمل إبداعي بشـــري يقبل الشـــك والتمحيص، ليس قرآنًا

منزلًا من السـماء لا ريب فيه ولم يأتِ به نبيًا لا ينطق عن الهوى.

يراهم أهل السُـنة جماعة مبتدعة وكل بدعة ضـلالة، حيث اسـتحدثوا طرقًا في العبادة والتنسـك ما شرعها الله ولا أتى بها رسـوله الكريم، وأتت كلمة الصـوفية من ارتدائهم الصـوف وقـال بعض المتصـوفين إنهـا جـاءت من كلمـة (الصـفوة) ومن التصـوف ما هو محمود وما هو منبوذ، فمن يراه محمودًا، أن يكون التصـوف إسـلاميًا معتدلًا بما أمر الله فيه وجاء به نبيه من قول أو فعل، ومن يراه مذمومًا من جاء باستحداث على الإسلام مبالغًا فيه وبه غلو.

فاجئه مصـطفى يدخل عليه غرفته دون أن يطرق الباب فنهض مبتسمًا ومصافحًا له فتقدم مصطفى من مكتبه مرتبكًا قلقًا لا يعرف من أين يبدأ وبما يتحدث حتى نظر إلى الكتاب المفتوح على المكتب فحاول أن يجد طريقة ومحورًا قبل أن يصارحه بحقيقة مجيئه إليه دون اتصال، فقال:

- مـاذا تقرأ؟ وأخـذ مصـطفى الكتـاب بين يـديـه يقلـب في صفحاته.

- كتاب عن (سلطان العاشقين) ابن الفارض، أجابه مراد.

ترك الكتاب مصطفى من يديه وهو يقول:

- يا صـــديقي ما دمت شـــغوفًا في قراءتك لهذا النوع فعليك بـالقرآن ودعـك من هؤلاء الـدراويش بمـا لهم أو عليهم من شطحات.

ابتسم مراد واقترب منه وقال وهو يتجه نحو مكتبه:

- ومن أدراك بأني لا أقرأ في القرآن وأحفظ ما يسره الله لي!

فأضاف مراد قائلًا:

- القرآن يا صديقي بما يدعوني لغض البصر، والسِيَر الصوفية.

بما تدعوني لفتح البصيرة، واستطرد مراد وهو يشعر أن نفسه تتلقى العلم في حضرـة ابن عربي وتســتمع إلى قواعد شــمس التبريزي، وتنهل من أقوال جلال الدين الرومي وغيرهم، قائلًا:

ما دمت كقارئ للصـــوفية تســـتطيع التحري بين الحقيقة والتدليس تأخذ ما تصـفو به نفسـك وتترك ما تبغضـه، تقرأ ما إن تذهب روحك في حضرـــة منتشـــية بين الســـيرة النبوية والسلف الصالح وترجع حين تصل لما ينفيه عقلك ويصعب عليك استقباله، بالأحرى يا صديقي المذهب الصوفي لا يُؤخذ كله ولا يُترك كله.

تدخل مصطفى فاصلًا بالقول:

- هم ثُلة من الدراويش يا صـديقي، أخشىـ عليك أن تفسـد دنياك وآخرتك وتكون من «الَّذِينَ ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا».

- صدق الله العظيم.

قالها مراد وهو يبتسم مضيفًا:

- لكن ما سر المفاجأة الجميلة، ما وراءها يا صديقي؟

تلعثم مصـطفى وشـعر أنه لا مفر؛ حيث لم يتبق على زفاف سوى أسبوع واحد وقال بدون تردد:

- حاتم.

وسكت مصطفى.

- ماذا به حاتم؟ رد مراد.

ابتعد مصطفى عنه خطوتين وأضاف وهو يدير ظهره عنه:

- حاتم هو عريس نغم.

سكت مراد وأطال السكوت مندهشًا ومذهولًا وغير مصدقٍ!

- حاتم، حاتم كمال الشـهاوي، نعم هو ابن كمال بيه، كيف غاب هذا عن ذهني؟ واقترب من مصطفى يجذبه من قميصه وقال:

- هو يعلم عن علاقتي بنغم؟

- لا.

- لا بدّ وأن يعلم.

- بل لا بد ألَّا يعلم، يا مراد! حاتم نحن نعرفه جيدًا، كما فعل والد نغم، فعل والده لتبادل المصالح وأنت وأنا وهو وهي كلنا نعلم ذلك، وضع مصطفى يديه يربت عليه ويُهدئ من روعه قائلًا:

- يا صـــديقي قد آذيت نغم في البداية بأن نظرت إلى كوكبها الشـــاهق وأنت لا تســـمن ولا تغني من جوع، وآذيتها للمرة الثانية بتخليك عنها وخيرًا فعلت، فلا تكن أنانيًا معها للمرة الثالثة وتخبر حاتم عن علاقتكما التي لن تغير من الواقع شـيئًا غير أنك شـــهرَّت بها وترتكب جُرمًا لا تحمد عقباه، فكر بأمر نغم لو لمرة، فكر بأمر صـديقك أيضًـا الذي يرجو حضـورك حفل زفافه قبل سفرك، يا صديقي كما يقول المثل الإنجليزي: «لا يفيد البكاء على اللبن المسكوب».

****

عادت نغم إلى قريتها تجر قلبها وقد علمت أن مراد عزم على السفر من أحد منشوراته على الفيس بوك التي تتابعه من خلال اسمٍ وهميٍّ، تقوقعت على نفسها كالسلحفاه وتوارت خلف أحزانها مذعنة لقرار والدها، اِلتقت هي وحاتم في منزل والدها بعد حفل تخريجه من كلية الشرطة بعد أن رحب والدها بحضور حاتم ووالده لرؤية نغم وقراءة الفاتحة، والد حاتم كان قد رآها مصادفة من خلال زيارة قام بها لوالدها ومن يومها وهي استقرت في ذهنه عروس لابنه حاتم، تم الإتفاق على كل شكليات الزفاف وجلس حاتم ونغم للمرة الأولى في غرفة مكتب والدها على كرسيين متقابلين وظل باب الغرفة مفتوحًا.

حاتم شابٌ جذابٌ وذو حسبٍ ونسبٍ، وسيمٌ وضابطٌ لا يمكن أن يرفضه عقل لكن العقبة كانت في كيف يستقبله القلب؟

يرتدي حاتم بدلةً رماديةً وقميصًا أبيض ورابطة عنق سوداء، كان أنيقًا ومهذبًا في حديثه، وكانت ترتدي نغم فستانًا مخمليًا بنفسجيَّ اللون وحجابًا لونه بيج، اعتدل حاتم في جلسته التي لا تخلو من الفخر والاعتزاز، ونغم التي تنظر إليه ولا تراه عابسة الوجه، شاحبة اللون صامتة، بادر حاتم

بالحديث وقال وهو مبتســـمٌ محاولًا أن يكون لطيفًا كما هو أنيقٌ:

- لم أكن أعلم أن ذوق والدي رفيع لهذه الدرجة!

نظرت إليه نغم متصـنعة الابتسـامة وحاولت أن تكون لطيفة وقالت:

- كان من المفترض أن تـدرك ذلـك قـديمًا، فهو قـام باختيار والدتك من قبلي!

تلعثم حاتم الذي اندهش من جوابها مصطنعًا ابتسامة ووضع قدمًا على قدم وقال:

- نعم كلامك صـــحيح، والدتي ليس لها مثيلٌ، كما أن جمالك ليس له مثيلٌ.

- شكرًا لمجاملتك الرقيقة. قالتها نغم ممتعضة.

- بل هي الحقيقة. قالها حاتم مؤكدًا ثم أضاف:

- يؤسفني أنني لم أستطع الحديث إليكِ من قبل.

رمقته نغم وهو يضحك بالنظرة ذاتها وهي ممتعضة.

ردت نغم وهي تنظر إليه مختنقة الصدر:

- هنالك أشياء إن تأخرت فسدت معانيها.

- نعم مضـبوط كلامك، قالها حاتم وأضـاف وهو ينزل قدميه ويعتدل في جلسته:

- لكنني أودُ أن أطرح عليك سؤالًا، ولكِ حق الرد من عدمه.

- تفضل.

- قبل أن أطرحه يجب أن أبدأ بنفسي، حاول حاتم أن يتحدث عن حياته في موجز من الأحداث محاولًا كسب ودّها وقال:

- أنا شـاب علاقاتي محدودة، لم أُقِم علاقة عاطفية في حياتي عدا مرة واحدة وكانت لوقت قصير، كانت أنثى من خارج مصر. تعرفت عليها من خلال صـديق لي في جامعة القاهرة، وعلى سيرة الأصدقاء فأكثر صديقين بحياتي هما مصطفى ومراد.

ارتعدت نغم وتجمدت ونهضـت دون أن تشـعر وخجلت، وقف اسم مراد غصة في حلقها لا تدري ماذا تصنع؟

رباه من تلك المفاجأة، هل علم مراد بأن صـديقه يجلس الآن معي ليطلب يدي للزواج؟ يا إلهي من هذه الصـدمة التي لم تكن في الحسبان. لاحظ حاتم تغيرات وجهها وقال:

- هل في الأمر ما يزعجك؟

هزت رأسها نافية دون حديث لم تعد تقوى على الحديث.

- ماذا بكِ؟ أعتقد أنك تتذكريهم جيدًا. تمتمت في نفسها بصوت لا يسمعه حاتم، إذًا هو حاتم كمال، نعم هو صديق مراد الطالب بكلية الشرطة ومصطفى الحصري صديقه الذي يدرس بجامعة القاهرة، يا رباه أنجدني!

- هل بكِ شيئًا؟

- لا، لا. قالت نغم وهي تبتلع ريقها.

- الآن اسمحي لي بالسؤال الذي لا بد منه. قالها حاتم محاولًا الاقتراب منها برأسه وقال:

- هل تحبين أحدًا؟

أغمضت نغم عينيها، وقالت في ذهنها: ماذا لو قُلت نعم؟ ماذا لو أخبرتك أن قلبي يجلس فيه صديقك متربعًا على عرشه؟

وعزمت ألا تنكر وتقول نعم قلبي متعلق بشخص أحبه ويحبني، ونظرت إليه لتقولها وهي مبتهجة وجريئة فكانت اللطمة على وجهها أخرستها حين سمعت ضحكة والدها مع كمال والد حاتم وهو يقول بصوت عالٍ:

- فين الشربات يا فريال؟!

فأغمضت عينها وهزت رأسها نافية وقالت بألم وحسرة:

- لا، لا يوجد في قلبي أحد.

****

ليلة صيفية صافية تفرّد فيها القمر وحده بالفضاء واحتضنت السماء نجومها تُرضعُهن لغدٍ جديدٍ. في منزل عصمت بيه اجتمعت النجوم والدبابير والنسور على أكتاف المدعوين ذوات المناصب المرموقة لعقد قران نغم على حاتم. توهجت القرية بالأنوار والزينة وأصوات المزامير وزغردة النساء، ودق الطبول ورقص الخيول وبهجة الصغار، وتصافح الرجال وتوافد أعداد جارفة نحو الحفل المُقام في منزل عصمت والد نغم؛ حيث أصر أن يكون الزفاف في بيته، وقد اقتنع كمال بهذه الفكرة ليراه أهل القرية ويعرفهم عليه لمؤازرته في الانتخابات التي باتت قريبة وبعد شهور قليلة.

اجتمع الحضور من الأعيان والفلاحين والمستشارين الجدد والقدامى ونواب الدائرة وكل أصحاب القامات في القرية وخارجها، واجتمع معظم نساء القرية بداخل الفيلا يعددن الطعام.

كانت ترتدي نغم فستانها الأبيض الناصع، ضيق الصدر والخصر- وواسع من على الأقدام وترتدي تحته بلوزة بيضاء تغطي يديها وصدرها كما هي معظم عادات الأفراح بالقُرى وحجابًا على الرأس يعتليه تاجًا فِضيًا لامعًا، يجلس بجوارها حاتم ببدلته السوداء وقميصه الأبيض ورابطة بابيون سوداء.

جلست العروس صامتة لا تتحدث، متجهمة الوجه لا تبتسم، عابسة لا تضحك، غائبة في ماضٍ ليس لرجوعه من سبيل، وبجوارها حاتم المبتسم دائمًا يصافح بحفاوة ويحتضن في سرور. تحاول نغم أن تتصنع ابتسامة بين الفينة والأخرى كي لا تستطعن النساء اللواتي جلسن بجوارها وأمامها تفحص ملامحها ووضعها تحت مجهر ملاحظاتهن الدقيقة التي يكدن يجزمن أنها لا تخطئ، يفسرن النساء ابتسامة العروس، إيماءاتها، مساحيقها، فستانها، ضحكتها، صمتها، تحدُثها، رقصتها، ويعطين لكل شيء تفسير كأنهن منجمات حضرن لضرب الودع لا للاحتفال.

يقف مراد أمام منزلها وبجواره مصطفى، ينظر إلى الأضواء والزينة التي باتت ضبابية في عينيه من غشاوة الحزن، تدق الطبول في رأسه كالنواقيس، وزغردة النساء كأنها غربان طليقة، يستجمع ما تبقى فيه من شجاعة ليتقدم، تمشي.

قدميه في وهن وهزل، خاوي الروح، مدمي القلب، عابس الوجه، شاحب اللون، ذابل العينين، سقيم الجسد، عليل النفس، قتيل الهوى، مريض الخوف، بلغت مقلتيه نشوتها فبكى، ربت على كتفيه مصطفى الواقف في حضرة الحزن صامتًا، مقدرًا لمشاعرصديقه، محتضنًا حزنه في ثبات، حثه على التقدم ليبارك للعروسين بعدما أوصى مراد أن يصمد أو يرحل.

يجهل حاتم العلاقة بين نغم ومراد الذي وضع عليها مصطفى الغطاء كاتمًا سرّها، تقدما نحو العروسين، ظهر مصطفى أولًا مصافحًا حاتم بحفاوة حيث تأخر مراد عن باب الفيلا، فتأخر ظهوره ونغم غير منتبهة تحادث صديقتها، حتى التفّت نغم بلفتة سريعة كأن حواسها أُضرمت فيها رائحته فنظرت إلى الباب وجدته يحاول الدخول محني الرأس، يكسوه الحزن، حاولت الوقوف فلم تستطِع فجلست محدقة به بعينها التي انفرجت وامتلأت بالدمع، أشفقت عليه أكثر ما أشفقت على حالها، ترتجف أطرافها ويرتعد بدنها وتحول الورد المتناثر فوقها شوكًا صوب القلب، تبتلع ريقها بصعوبة كلما أهمَّ، شعرت أن قلبها تحت قدميه يرجوه الوقوف، يناديه ألا يتحرك، نزلت دمعتها رغم أنف عينيها، نظرت إلى حاتم المنهمك في حديثه مع مصطفى يتبادلان الضحكات،

ترتفع رأســها نحوه كلما اقترب، يردد في ذهنه بينه وبين حاله، يوم أن دخلت بيتك يا نغم، دخلته لأحضر زفافك، وهي تقول في نفسها: ليتك ما دخلت!

- مراد صديقي، اشتقت إليكَ يا رجل، قالها حاتم فاتحًا ذراعيه لاحتضان مراد.

ابتسم مراد على مضض ليتفادى الجائحة وقال:

- مبارك عليك يا صديقي، هكذا تجتمع الكواكب.

تجمد الدم في عروق نغم حين ســمعته يقولها فحاولت النهوض متكئة على الكرسي ليسعفها في القيام.

تنظر إليه نغم وتقول كلامًا كثيرًا لا يســمعه غيرها، في وصــلة من حديث الأعين لا الشفاه، نظرات لا يفهمها غيرهم.

- لِمَ أنت هنا؟

أجئت تودعني أم جئت لترى قلبي يلفظ آخر أنفاســه أمامك كما أحللت دمه!

ينظر إليها مراد في أسف ولسان حاله يقول:

- جئتُ أضــع على جثة الحب قبلة اعتذار، كم أنتِ عروس فاتنة!

كوكب منير وقمر ســـاطع، أقدم آخر صـــلواتي في محراب جسدك الطاهر، جئتُ لأراكِ قبل رحيلي.

قـاطع شرودهمـا حـاتم وهو يجـذب نحوه مراد غير المنتبـه لشيء عدا عينيّ نغم وقال:

- لســـتُم بحاجة إلى تعريف، انقبضـــت قلوبهم وارتبكوا ثم أضاف يواصل حديثه:

- بالتأكيد لســـنا بحاجة إلى معرفة ذات الحســـب والأصـــل الكريم، قالها مراد ثم اضاف:

- مبارك عليكم.

ردت نغم محاولة أن تقول شيئًا لربما هو آخر ما يسـمعه منها وقالت:

- ممنونة لحضورك مراد، وابتلعت ريقها ثم قالت:

- عقبالك.

صـــوت زغاريد ارتفع في المكان ودخلت امرأة حاملة علبة مجوهرات وبها خاتمين للعروسين، فنظرت إليها نغم في موقف لا تُحســـد عليه أمام عينيّ مراد تقدم حاتم ليضـــع الخاتم في إصـــبعها فتذكرت مقولة عايدة، البنت التي أجبرت على الزواج من رجل لا ترغبه:

«حقًا ما ظننتُ قَطُّ أن الإنسان يُمكن أن يُخنق من إصبعه».

****

ماذا يحدث لو كنت كوكبًا؟

حدودُك غير منتهية، مساحاتك سحيقة، مسافاتك شاسعة، أغوارك عميقة، أقطارك متباعدة بقدر لا يمكن فيه التلاقي، فيك الحياة والعدم، منك البدء والخلاص، مرتقٍ عالقٌ مفصّلٌ على نحوٍ بديعٍ.

ذوو الفاقة لا يلمسون الكواكب مهما وثبوا، ولن يقتربوا من غلافها مهما ارتقوا، لا يطؤون سطحها مهما صنعوا، سلعتهم العاطفة وما أبخسها من سلعة مع ذوي النفوذ، لا يملكون حق أحلامهم، يُرهَقون مع من لا تشد عليهم ضمائرهم، هم الكمالة وليس التكامل، بشريون ليس لديهم رخصة الزحف حول الكواكب، نفوسهم ضئيلة، سماؤهم عتمة، شمسهم بخيلة، خطوتهم ضيقة.

ذوو الفاقة موضعهم في الأرض للعيش لا للحياة، يخشون الحقيقة چل خوفهم، يلتحفون التجمل ليواروا سوءاتهم، يتغنون بالصبر حبًا وكرمًا، يحبون الله خوفًا وطمعًا، تطحنهم عجلات الحياة فينهضون مبتسمين، يغزوهم اليأس

فينتصرون بالإحتساب، لا تشرئِبُّ أعناقهم خوفًا من القطع، لا يمدون أيديهم خوفًا من المنع، أرواحهم خفيفة بين أيديهم في كل درب يتغذى الموت عليها كيفما يشاء، يعالجون الأمراض بقولهم: (الجسم تقتله الراحة)، غريبهم ضيف وضيفهم صاحب بيت، تدخل قلوبهم قبل بيوتهم، ينامون فارغين من الغد، يطلبون رزقهم كِفاف يومهم.

أما سلالة الكواكب معمّرون كأنهم أشجارٌ، ممتدون في الأرض كأنهم جذور، رقابهم ذو حصانة، أرواحهم دسمة وأعمارهم طويلة، يستغرق الموت وقتًا طويلًا كي يجمعها من بين المنشآت والأبنية والقصور والبنوك، ينظرون إلى الدنيا نظرة زهو، لا يحبون القبور لأنها تنبش في ضمائرهم، تصم آذانهم عند الحديث عن الفناء، يحبون الله طمعًا فقط، ينظرون إلى الناس من بروج مشيدة فيروهم صغارًا، لا تدخل قلوبهم وإن دخلت بيوتهم، يمنحون الثقة بقدر ما تقدم من قرابين الولاء، يملكون الدنيا بين صدورهم وقلوبهم كالخزائن لا يصلها النور، ينامون مُحملين بالغد وإن وضعت النجوم كلها في جيوبهم سيطمحون للقمر.

****

«ما تجمعه الأحلام.. تُفرّقُه اليقظة»

جبران خليل جبران -

غابة كثيفة مكتظة بالأشـــجار، في عتمة الليل ينظر حيث الرؤية ضبابية لا يرى شيئًا، لا أحد غيره في ظلام دامس، يمشي- بخُطى حثيثة ملتفتًا يمينًا ويسـارًا، أسـفلًا وأعلى، ينظر خلفه بسرعة فيزيائية مرتعدًا مرعوبًا، وإذا بامرأة تأتي من خلفه دمســـت وجهها فلم يســـتطع التعرف على ملامحها، مغطاة الرأس بجلباب أســـود فضـــفاض وفســـيح، أصـــوات حفيف أشـجار تصـدر من وطء قدميها وجلبابها الطويل الذي يكنس الأرض من خلفه، مسكت بخنصره صامته، وهو مندهش، لم يرفض، لم يمانع ومشـت به في طريق شـاغرة حتى اقترب من مكان لم يره من قبل، مكون من ثلاث درجات صـعود وثلاث درجات نزول وقاعدة خرســـانية مســـتطيلة تربطهما، تركت إصـــبعه ودفعته من ظهره دفعة خفيفة فنظر خلفه لم يرها، فصـعق وترنح حتى كاد يرتطم بالأرض، فأمسـكه صـوتًا جاءه من وراء الظلام:

- اقترب!

تقدم بضع خطوات وحطَّ بقدمه اليمنى على أول درجة، حتى صـــعد الثلاث درجات فوجد شـــجرتان كبيرتان حول القطعة الخرســـانية التي يقف عليها تلتف أغصـــانهم في انحناء على بعضها البعض، نظر إليهم في دهشة وشعور بعدم التصديق،

أمعن النظر في الفضـــاء قاضـــب الحاجبين، حتى اقترب عليه أحدٌ بدت ملامحه تظهر شـــيئًا فشـــيئًا، كانت امرأة طاعنة بالســـن، دهس الدهر ملامحها، ضرب العمر بمطرقته ظهرها فانحنت قليلًا وشرب الزمان من عينيها حتى ذبلت وصغرت.

اقتربت منه وصـــعدت في قبالته الثلاث درجات صـــامتة، تمسك سلة بها عنقودًا من العنب وهو ما بين سكوت وذهول تام، فقطفت حبة واحدة ووضـــعتها في فمه، مســـكت يده اليمنى وفتحت راحته ووضـــعت فيها ســـنبلة قمح واحدة وطبقت عليها يده وأخذت ترجع بظهرها نزولًا حتى تلاشـــت من أمامه رويدًا رويدًا.

اســـتيقظ مراد منتفضًـــا من حُلمه، خائفًا، لاهثًا، يتصـــبب عرقًا، حلقه جافًا، يتنفس بصـــعوبة ويعلو صـــوت زفيره، حاول النهوض من على فراشـــه وقام يتوضـــأ ليصـــلي الفجر ويحضر حقيبته للسفر غدًا.

****

في فيلا حاتم التي أهداها له والده بمناســـبة زفافه بحديقتها الكبيرة وتصميمها المعماري العصري الفاخر، تعيش

نغم أولى لياليها بغرفة نومه وعلى فراشه. ترتدي قميصًا أبيضَ للنوم بحبلين شفافين مقوسين على كتفيها، يصل طوله إلى ركبتيها، يتوسطه حزامًا يفصل بين نهديها وخصرها، ينساب شعرها الأسود كالستائر الحريرية التي يراقصها الهواء إلى أقاصي ظهرها، يتكور نهديها كبرجيّ حمام التصقا وحلماتها كزبيبتين شهيتين، جسدها الزاخر بالأنوثة، بطنُها المشدود، خصرها النحيف المتقوسة أطرافه كحبة فراولة، سُرتها كحبة توت، امرأة بنكهة الفواكه، تعرجات ظهرها المنحدرة كجبال أطلس، تنزلق يديك بين فقرات عمودها الفقري حتى تصل إلى خصرها الذي يماثل كوكب الأرض الذي يقع بين شرقه وغربه بركانُ مستعر لم تشتعل حممه بعد.

اقترب منها حاتم بعد خروجه من الحمام عاري الصدر يرتدي سروالًا أبيضَ، يجلس بجانبها وهي جالسة على طرف الفراش منكسة الرأس وقال لها في نبرة هادئة حين اقترب ليجلس بجوارها:

- كم تبدين رائعة!

احمرت وجنتيها وظلت صامتة، فبسط يديه يداعب شعرها ويرفعه عن عينيها:

- بم تفكرين؟

- أفكر لو أنك تبتعد قليلًا، قالتها وهي ترفع يده عنها.

- وهل ابتعادي هذا سوف يسعدك؟

- نعم!

- هل هذا الطلب أعتبره عدم رغبة أم دلال؟

- بل عدم شعور لم يتكون تجاهك، قالتها وهي تنهض وتقف في منتصف الغرفة.

حاول حاتم أن يبدو هادئًا وأضاف:

- الشعور سوف يأتي بالقرب والمعاشرة وليس بالابتعاد.

نهرته نغم ونظرت إليه وفي حنق وغضب ثم قالت:

- أنت تعلم جيدًا أننا أحد طرفي صفقة بين والدينا فإن كنت ربحت بها فربحت جسدي فقط.

حاولت أن تنتقي كلماتها بعض الشيء حتي لا تؤذيه بحديثها:

- أرجوك حاتم أن تمنحني وقتًا كافيًا.

- لكِ ما شئتِ من الوقت، ولكن يجب أن تكوني على قناعة تامة أننا بغض النظر عن الأسباب فنحن الآن أمام نتيجة واحدة وهي أننا زوجين وأنا لا أريد إجبارك ولكن لا تجبريني على فعلها.

- تذكرت نغم جملة والدها وكأن الرجال بعينيها جميعًا يعطوا الخيارات ولكن بيديهم الرخصة لسحبها وجعل الأمر فرضًا.

- لا يشغلني الحصول على جسدك يا نغم، بل الحصول على قلبك.

- قلبي!

شاهدت مراد أمام عينيها، فنزلت دموعها التي احتفظت بهما طوال الحفل خشية أبيها والناس وقالت:

- أنا وقلبي متخاصمان، فلو تصالحنا الآن وأنا في غرفتك لسترتُ جسدي عنك.

تحركت في الغرفة ونظرت إلى الفراش والجدران وقالت:

- قلبي الآن يا حاتم يخبرني أن هذا الفراش سعير، وتلك الجدران قضبان وأنت جلاد.

- لكن أنا غير ذلك.

- لتثبت عكس ذلك، أرجوك أن تمهلني وقتًا.

استدار حاتم عنها غاضبًا وخرج تاركًا لها الحجرة.

****

في السـاعة السـادسـة صـباحًا، تقف والدة مراد في وصـلة من البكاء والنشـيج، ترتب حقيبته بثقل الجبال، تعُد طعامه بوهن الحُرقة، ترتل على ملابسـه أدعية السـفر، ينظر في ملامحها نظرة محب لا يقوى على فراق محبوبته، بالأمس فارق نغم وهو الآن على أعتاب فراق أمه المرأة التي أطعمته الحب. الحب ينمو في قلب الرجل منذ صغره إذا رضع حبًا لا لبنًا، يقف بجوارها يتحاشى النظر إليها عدا خطفات صـغيرة، تنظر إليه متمنية لو أنها تخبئه داخل صدرها فلا يراه أحد ولا تخطفه الغربة من بين يديها، قالت له وهي تضـع طعامه داخل الحقيبة:

- والدك سرقته الغربة مني، حتى عاد لي ميتًا، هل تضـن بك الأيام عليّ؟ هي نفس الأرض التي سرقته يا مراد وأحلَّت دمه، وراحت في بكاء مرير، يحتضها مراد وهو يبكي وينفطر قلبه من الحزن:

- سأعود يا أمي، سأعود إليك ومن أجلكِ فقط، لم يبقَ هنا ما يستحق الشوق غيرك.

- يا ولدي لا تبخل باتصـــالك، شـــحذتك من الله وها أنا أســتودعه إياه الذي لا تضـيع عنده الودائع، لا تتأخر عليّ، يا ولدي اللقاء نصيب فلا حرمني الله نصيبي من لقائِك.

احتضـــنها مراد وقد حال البكاء نحيبًا وحال النحيب صراخًا وحال الصرــاخ غصــة، يحاول الهروب من أمامها وهي متشبثة بيديها كأن الدهر صب في سواعدها الشباب فلا يقدر على إبعادها، تبكي بصـــوت عالٍ يا مراد، يا ولدي، يا نبض القلب وكل ما أمتلكه في دنيايّ، على مَن أتكىء إذا مالت الليالي بثقلها؟ من ســتغتســل عيني برؤيته صــباحًا؟ تبكي، ترتجف، ترتعد، تترنح، تتســاقط قدماها لا يحملاها ويجذبه مصــطفى صديقه من حضنها تخاطبه:

- اتركه في صدري واتركني بين يديه.

تنتظر مراد ســـيارة صـــغيرة أمام منزله متأهبة لتقله إلى موقف الحافلات بالمنصـــورة ليركب الحافلة المتجهة لميناء نويبع الذي يقع على الســاحل الغربي لخليج العقبة بمحافظة البحر الأحمر.

بجوار شركات الســـياحة في المنصـــورة في منطقة تســـمى (المحافظة) نزل مراد ينتظر الحافلة وبدأت الشـــمس تشـــتد من رخوها، مضى- وقت طويل حتى وصـلت، ركب فيها قرابة

خمسين رجلًا تتفاوت أعمارهم، وامرأة طاعنة في السن ولديها ابنتان بسن البلوغ.

مشهدٌ حزين، وجوه يابسة، وداع بكلمات حانية تبلغ من الرقة حد الألم والبكاء، استيقظت الشمس من جيب السماء لتزيد المشهد كدرًا وضيقًا. السائق الذي يقتاد الحافلة أربعيني العمر، قصير القامة، ذو وجه عابس وقسمات تعلو جبينه، شعر مجعد، ولحية ثقيلة يتوسطها شعيرات بيضاء، قام بتشغيل المحرك وكأنه قام بتشغيل الأذان لتبدأ الدعوات بالنحيب والتضرع بذرف الدموع والكل يلوح بيده مودعًا وكأنه مأتمًا. كمائن تفتيش، سير متقطع، شمس تلفح الوجوه، عرق متواصل وحافلة لا تصلح إلا لنقل الخضروات.

في الساعة السادسة والنصف مساءً أوقف الحافلة كمين قبل الوصول إلى طابا جنديًا في القوات الحربية، كان مشفقًا على الركاب حقًا ولكنه بلغة لا تخلوا من الأدب قال:

- أعتذر من الجميع لدينا تعليمات بحظر تجوال بعد السادسة مساءً وإغلاق الطريق، وأضاف كمن يطلق آخر رصاصة من بندقيته:

- هتناموا هنا.

- هنام هنا، هنا فين!

قالتها المرأة الطاعنة في العمر في دهشة واستغراب.

صـــدمة عارمة بالأسى في صـــدر الجميع وصـــارت الأفواه فاغرة، كانت جملته ســـوطًا من نار يفوق حد التحمل ولكن جلاده رؤوف يعتذر مع كل ضربة.

دهشـــة خيَّمت أرجاء المكان وطبق الســـكوت على الأفواه، ورمق الجنـدي بعينيـه نحو الطريق بنظرات أسى وأضـــاف قائلًا:

- هنا على الرصيف.

اكفهرت الوجوه وتناغمت في إيقاع مؤلم وفي خنوع مؤســـف استعد الجميع لأن يمتطوا الأرصفة.

الوقت في الصحراء سياف بارد اليد وطلقات عشوائية من كتائب الجيش تصـــطاد النجوم. لا يوجد ماء، لا دورات مياه، فتات طعام وإضـــاءة خافته ككتيبة جيش رجعت لتوها من معركة مهزومة تجر أقدامها عنوة. صـــمت مبالغ فيه لا أحد يحادث الآخر كأن علي رؤوسهم الطير.

انتبه أحد الركاب إلى وجود اســـتراحة في الطريق على بعد اثنين كيلو رجوعًا للخلف، لم يعطِ الركاب السائق مساحة للتردد ونزل الركاب لقضـاء حوائجهم ومُصـلى صـغير في أحد

أركان المقهى الذي يتفرد بوجوده، توضأ مراد وصلى العشاء مع بعض المسافرين.

بعد منتصف الليل، جلس مراد بجانب أحد المسافرين فمد يديه بسيجارة كليوباترا نحو مراد، نظر إليه مراد وأخذها شاكرًا.

وقام من جلسته ينظر في الظلام ويتساءل في عقله:

«كيف يعيش هؤلاء الجنود هنا»؟

أطلق بصره في الظلام باحثًا عن شيء يجهله، نظر خلفه نحو المُصلَّى وارتعد بدنه من مشهد المسافرين الذين يكتظ بهم المكان، منهم من يضع رأسه فوق حقائب يده، ومنهم من يضعها فوق حذاءه، ومنهم من يضعها فوق مؤخرة الآخر وراحوا بين شخير ونخير في سبات عميق.

- ما حملهم على هذا؟ فيجيب على نفسه:

- حملهم الذي حملك.

في فجر يوم الأربعاء استيقظوا جميعهم من فوق الأرصفة، توضأ بعضهم للصلاة واستعد بعضهم لصعود الحافلة متأهبين لاستكمال الرحلة في ابتسامة لطيفة، لوّح الجندي الذي ما زال على قيد الخدمة رافقتكم السلامة.

****

في إحدى المأموريات التي كان يقودها حاتم بسيارة الشرطة وقوة أمنية من بعض العساكر ومساعده الملازم حسام الذي تربطهما علاقة طيبة، إلى أحد الأحياء الشعبية بمصر للقبض على سيدة أربعينية غارمة تداينت بمبلغ كبير إلى صاحب محلات أدوات منزلية لتجهيز ابنتها للزواج ولم تستطع سداد الأقساط التى تراكمت عليها بعد مناوشات بينها وبين صاحب الأدوات المنزلية؛ مما دعى الرجل إلى رفع قضية يطالبها فيها بالسداد أو الحبس من خلال الكمبيالات التى بصمت عليها، كانت السيدة تعول أولادها بعد وفاة زوجها ولديها ولدٌ وبنتٌ.

وصل حاتم بقوته ودفع الباب فخرجت السيدة مهرولة وخائفة، أمر حاتم عساكره بالقبض عليها وقبل صعودها السيارة أتى ابنها مهرولًا من آخر الزقاق، فنظر إليه حاتم وهو يتفحص بنيته، وجده صبيًا يافعًا، متوسط القامة، عريض المنكبين، بشفتين غليظتين، مفتول العضلات وبشرة

سـمراء، فرفع حاتم حاجبيه وسـأل السـيدة عنه وهو يشـير نحوه فقالت مرتجفة:

- أمير ابني يا سعادة الباشا.

فأمر العسـاكر أن يأخذوه معهم وذهبوا جميعهم إلى قسـم الشرطة ونظر إلى السيدة قائلًا:

- ماتخافيش أنا هاخده يشـتغل عند والدي بالقرية لحين خروجك بالسلامة!

رمقه حسام مستغربًا من فعل حاتم الإنساني الذي لم يعهده منه طوال خدمته معه وانطلقت السـيارة وسـط ذهول أهل الحارة.

****

وصل ميناء نويبع، وعلم هناك بالخبر الذي شق على نفسـه أكثر، العَبّارة التي تقلهم صار بها خللٌ فنيٌّ يعملون على إصلاحه؛ مما سـوف يضـطرهم إلى الانتظار للغد بعد الظهر. تسرـب الخبر من أحد المسـافرين الذي علمه من جندي حراسة على بوابة الميناء أو اخترعه، لا يعلم مراد حقيقة الأمر

غير أن التذمر والتأفف قد بلغ منتهاه، اشــترى علبة ســجائر كليوباترا وهي أرخص الأنواع الموجودة وأشعل سيجارته يُحلِّق في الفضاء، جَنَّ الليل وجلس على الرصيف يقتات فتات طعامٍ حيث استنزف في الطريق ما حمله من أطعمة، تأخر يوم وليلة عن موعد رحلته، في السفر عبر البحر غير ملتزم بموعد إقلاع؛ لأن التذكرة الســياحية التي يســافر من خلالها صــالحة لمدة خمسة عشر يومًا.

ســماء نويبع تتلألأ فيها النجمات وقمر ســاطع، جبال تحف من كل ناحية، نســمات هواء باردة، وفراش من حصى- وتراب يتمدد عليه مراد متقوقعًا يتذكر نغم ووالدته وصـديقه مصـطفى، حتى حاتم تذكره بما يشـعر نحوه من حقد وكراهية ليس لها ســببٌ غير مشــاعره تجاه نغم، يخيَّل إليه نغم نائمة على فراشها الوثير وهو على الأرصفة، الفجوة بينهما لا تضيق بل تتسـع أكثر، تنهد بزفرة قوية يشـتم بها رائحة التراب ورأسـه المنبطح على الأرض، ويتمتم بشــفاهه بشــطر شــعري لأبي فراس الحمداني: «كل ما فوق الترابِ ترابُ».

ميناء العقبة في الأردن أحد الموانئ الرئيســة في المنطقة العربية، وهو الميناء البحري الوحيد في المملكة الأردنية الهاشــمية، وقد ســمي بخليج العقبة نســبة لمدينة العقبة إحدى محافظات المملكة، تطل على الخليج أربع

دول، تمتد سواحـــل السعوديـــة ومصـــر على جانبيه الشرقي والغربي، وتنحصر سواحل الأردن وفلسطين على شريط ضيق في أقصى شمال الخليج.

وصـلت العَبّارة بالميناء في حدود السـاعة الخامسـة مسـاءً، بعد أن اسـتغرقت رحلة مراد يومين، قضـاها في تأمل الصـحراء، وصـولًا إلى العَبّارة التي شـقت البحر الأحمر كما شقت صدره نصفين، نصف ينبض فيه قلبه على مصر راجيًا أن تحتضن والدته بسلام، ونصف نحو الأردن التي يرجوها أن تعيده بسلام.

نزل المسـافرون في طابور واحد طويل، يقف في أوله شرطي أردني ينظر في جواز السـفر ويشـير نحو بوابة فرعية بالخروج، وبعد دقائق وقف مراد أمام الشـرطي الذي دقق في وجهه يطابق فيها بين صورة الوجه وصورة جواز السفر، خرج من العَبّارة واضـعًا جوازه في حقيبة يده واتجه مع المسـافرين نحو بوابة الدخول ينتظر حقيبته على متن سيارة وبعد دقائق قليلة من وقوفهم جاءت محملة بالحقائب، صعد فوقها أحد المسـافرين في وثبة وقفزة سريعة التفت مراد الواقف مبتسـمًا بسخرية يقول بصوت يسمعه المحيطون:

- قلبي حاسس إن الواد ده كان شغال حرامي!

ابتسم الرجل الواقف بجانبه الذي لم يستطع كتمان ضحكته وقال:

- المهم ينزل الشنط مش يسرقها.

انهالت الحقائب على الأرض بطريقة عشـــوائية في حالة من الصخب والهرج، يرميها الشاب ويهجوه المسافرون وهو لا يلقي لهم بالًا، انشغل الجميع في التنقيب عن حقائبهم في فوضى عارمة، عرق وغبار وضوضاء وثرثرة، ينقب مراد عن حقيبته حتى عثر عليها وخرج نحو ممر ضـيق طويل ينتهي به أمام البوابة الرئيســـة للميناء، في ردهة فســـيحة على جانبها الأيمن مكتب لختم جوازات الســـفر يجلس به ضـــابطتين. اجتمع المســـافرون في الردهة مفترشـــين الأرض في وضـــع القرفصـــاء وبعد دقائق قصـــيرة جاء أحد الشرـطيين ممســـكًا بالعصىـــ التي تحملها قوات الدرك وجلجل صـــوته في أرجاء المكان متهكمًا على الجالسين بالشخط والتوبيخ ناعقًا بلهجة أردنية:

- الزلمة يالي راح يتحرك من مكانه راح ألعن عرضه.

لم يفهم مراد هـل هو ترحيـب بلهجـة شـــديـدة أم ترهيب شديد اللهجة؟ لكنه فطن من النهيق والصراخ أنها قد تكون لافتة من ضابط غير آدمي تقول الأردن لا ترحب بكم.

التفت برقبته نحو الرجل الجالس بجواره الذي ما زال معه منذ لحظة وصولهما الميناء إلى هذا الحشر العظيم، اقترب منه يهمس له بنبرة منخفضة:

- ما دام بدأناها بلعن العرض، شكلها هتكون رحلة وسخة.

فنظر إليه الرجل ممتعضًا ووكزه في قدمه يحثه على الصمت.

قاموا واحدًا تلو الآخر في طابور نحو جهاز المسح لتفتيش الحقائب وجاء دور مراد وكان يحمل في حقيبته ملابسه وعلبة دواء للسعال وعلبة حبوب للمعدة أرسلهم مصطفى لأخيه الذي يعاني من بعض المشاكل الصحية في القولون، فطلب منه الضابط المسؤول عن التفتيش فتح حقيبته، ارتبك مراد وارتجفت أطراف أصابعه وتأخر في فتحها؛ مما أضاق نفس الضابط الواقف منتظرًا فشخط في مراد ووكزه بيديه يبعده عن الحقيبة وأمسك بها وألقاها رأسًا على عقب بالأرض، استشاط مراد غضبًا وقال بصوت خفيض:

- يا فندم الشنطة فيها مصحف.

أجابه الشرطي وهو يتفحص حقيبته:

- سَكِّر تِمك بدل ما أدعس على وجهك.

أخرص وأغلق فمه والدماء تغلي في جبينه وبين شراييه.

تفحص الضابط حقيبته وأمعن النظر في الأشياء الملقاة على الأرض ورمقه بنظرة حادة وأشاح له وهو ينظر نحو مسافر آخر قائلًا:

- ضبضب أغراضك واتسهل من هون.

لملم مراد حقيبته ودون أن يحكم إغلاقها اتجه نحو باب الخروج يبحث بين الوجوه عن محمود الأخ الأكبر لمصطفى وكان شابًا عشريني العمر وتربطهما صداقة قديمة قبل سفر محمود إلى المملكة الأردنية الهاشمية، أسرع محمود ناحية مراد مهرولًا يحتضنه ويقبله.

- الأردن نورت يا صاحبي.

- منورة بيك يا حبيبي.

- أكيد انبسطت بالطريق؟

رد مراد ساخرًا:

- سكِّر تِمك ولَا.

ضحك محمود بنبرة عالية وقال:

- بالسرعة دي اتعلمت اللهجة.

رد مراد وهو يضحك قائلًا:

- راح ألعن عرضك.

****

قضت نغم أيام زواجها الأولى بحال لا يسُر، عيشة لا حياة فيها، جسد ينتهك بطريقة شرعية، جماع لا رغبة فيه ولا لذة، منطفأة تمر دقائق الجماع مرور المشي في الوحل، تتألم قهرًا لا متعة، تبكي وجعًا لا نشوة، تهب الجسد لا الشعور، تمنح ما يسلب شهوته لا شهوتها، تعطي استسلامًا لا حرية، تُلبي طاعة دون حب، تراه غازيًا لا فارسًا ويشعر حاتم بفجوة لا يفهم مغزاها، سألها أكثر من مرة عن سبب عدم رغبتها به فلم تجِب غير أنها لم تتعود عليه بعد.

اندهشت من بعض سلوكيات حاتم معها في الفراش التي لم تفهمها من إيماءات وتصرفات ورغبات وطلبات بدت في نظرها شاذة، وبدأت تسيطر عليها الأفكار حول أنه كان على علاقات قبل الزواج وبعده، أحست في بادئ الأمر أنه قد يكون بسبب رفضها المتكرر له، ولكن بعد أن باتت بين يديه لم يرغبها كثيرًا، ولم يكن معها ككل الرجال التي تسمع من

صـــديقاتها عن معاشرتهن معهم، هي لا تُلقي له بالًا بقدر ما يهمها التخلص منه، ارتابت في أمره وعزمت على التحري والتمحيص والوصول إلى نتيجة تؤكد شكوكها أو تنفيها.

****

بعد منتصف الليل، وصل الشباب إلى منطقة (وسط البلد) أمام مســكن محمود الذي يقطنه مع أربعة شــباب مصرــيين من محافظات مختلفة، دخل مراد ملقيًا نظرة على الشــباب الذين نهضــوا لمصــافحته حيث كانوا يلعبون الدومينو، والغرفة معبأة بدخان النارجيلة (الشيشة) تصافح مراد معهم بحفاوة وأرق في آن واحد، كانت الغرفة صــغيرة لا تكفي لرجليَّن بلا أَسرة يفرشــون الأرائك التي يجلســون عليها على الأرض ويصطفون بمحاذاة بعضهم البعض كجنود أسرى تسير فوقهم ليلًا مدافع الغربة، وبَدر في ذهنه كيف يجلسون بها هؤلاء الخمســة بما فيهم محمود وأنا ســادســهم، بآخرها حمام صغير وأمامه منضدة كبيرة بسطح رخامي تحتها بعض الأواني والصحون والملاعق وفوقها بوتاجاز صغير بشعلتين، قام محمود ليعد له العشاء فرجاه مراد:

- اعذرني محمود أنا محتاج أنام.

قاطعه محمود وهو يسير نحو ممر صغير وضيق:

- هنا الحمام، اتحمم وتعال نكون جهزنا المكان للنوم.

مال عليه مراد وقال بصوت منخفض:

- أنا هنام فين؟

- هنا، قالها محمود وهو يشـــير إلى مســـاحة فارغة جانب الحمام.

هز رأســـه موافقًا وقال بطريقة ســـاخرة حاول بها أن يبدو مبتسمًا:

- اختيار موفق. كي أعتاد على الخراء من الآن.

****

يجلس حاتم على مكتبه في قسـم الشـــــرطة بعد أن أغلق الحجرة جيـدًا وأعطى تنبيهًـا للعســكرى الواقف على الباب بعدم دخول أحد، مشـــعلًا ســـيجارته ينفث دخانه في وجه أمير الذي يجلس أمامه على كرسى المكتب، نهض حاتم

وقام بوضـع يديه على ظهر أمير الغارق في خوفه وانحنى عليه بعـد أن دنـت يـديه على صـــدره وقـال بنبرة هـادئة كفحيح الثعبان:

- كم عمرك يا بطل؟

- ثمانية عشر عامًا، أجابه وهو يبتلع ريقه خوفًا وارتباكًا:

- عظيم، قـالهـا حـاتم ورفع يـديـه عنـه ليجلس على الكرسي المقابل له وأضاف:

- تريد أن تخرج والدتك من السجن وتعيش حياة كريمة أليس كذلك؟

رد أمير في لهفة:

- نعم.

اقترب منحنيًا عليه:

- ماذا تعلم عن السمع والطاعة.

- أعلم عنهما... صـمت لوهلة وتلعثم وأخذ يفكر فيما يجيب وماذا يقصد بسؤاله عن السمع والطاعة ثم قال:

- أعلم أنها لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم.

- عظيم، ســـوف تذهب معي الآن، هل أنت مســـتعد لنجاة والدتك؟

- أفعل ما بوسعي لأن تخرج من هنا.

قال حاتم وهو ينهض ويمسك بيديه:

- حسنًا هيا بنا الآن؟

نهض أمير ثم قال:

- إلى أين؟

رد حاتم وهو يتفحص جســـد أمير بعد أن اقترب منه واضـــعًا يديه على فخذه يضرب عليه بهدوء:

- لأختبر طاعتك.

خرجا معًا من قسم الشرطة واستقلا السيارة، ليقود حاتم، وبجواره أمير الذي يجلس في صـــمت فيبادره حاتم بابتسـامات حانية ونظرات غير مناسـبة ينظر فيها إلى فخذيّ أمير، مر حاتم على بعض المحلات في طريقه مشـــتريًا هاتفًا صـغيرًا وشريحة جديدة وبعض الملابس والأطعمة والمعلبات حتى وصلا إلى شقته في السادس من أكتوبر.

دخل أمير في ذهول ودهشة تتعارك الكلمات في رأسه، لا يعي من الأمر شـــيئًا، دفعه حاتم بعد أن أغلق الباب خلفه

دفعة خفيفة يحثه فيها على التقدم، وضـع الأكياس من يديه واتجه نحو أمير ممسكًا بكتفيه مبتسمًا وقال له:

- أعطني هاتفك.

في صمت وخوف معًا ودون نقاش أخرج أمير هاتفه من جيب بنطاله وأعطاه الهاتف، فانفجرت حدقتيه مذهولًا وغاضـبًا عندما وجد حاتم يكسرـ الهاتف بكل ما أوتى من قوة ويدهسـه بقدميه، وبعد أن انتهى نظر إلى أمير وهو ينهج وقد عادت ابتسامته مصطنعة وأعطاه هاتفًا جديدًا بدائيّ الصنع دون كاميرا أمامية أو خلفية أو أي إمكانيات أخرى سـوى الاتصال والرد فقط:

- الآن يمكننا الحديث يا صديقي.

انصدم أمير بلفظة صديقي ورفع الكلفة بينهما وسحبه حاتم من يديه وهو لا ينبس ببنت شفة وقال له:

- اجلس، استرح هنا بجواري.

جلس أمير بجواره، ضـم يديه نحو صـدره وكذلك قدميه وحاول الحديث وهو ينظر في أرجاء المكان الذي تتفحصـه عيناه وقال:

- أين القرية التي سوف أعمل بها؟

بسـط حاتم يديه نحو فخذه فانتفض أمير ووقف لا يعلم ماذا يصنع؟

- أنت بتعمل إيه يا باشا؟

غضب حاتم وسحب مسدسه مصوبًا نحو رأسه قال له وهو يعض على شفتيه:

- ألم تخبرني أنك لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم؟

قال أمير في هلع:

- اللي تشوفه سعادتك.

فجز حاتم على أسنانه مضيفًا:

- وتُنفِذ.

كرر أمير خلفه مرتعدًا وأسنانه تصطك مطأطئ الرأس:

- وأنفِذ.

****

ذات نهار كان حاتم في المنزل وحده بينما ذهبت نغم لتشـــتري بعض الأطعمة من مكان قريب من البيت وعاملة المنزل في عطلة. وحين عادت صـــاعدة إلى غرفتها، ســـمعته يحادث أحدًا على الهاتف وهو يضـــحك مســـترخيًا بصـــوت هادئ ويتفق معه على موعد لقاء ويخبره أنه لن يتأخر عليه ويحاكيه بكلام قبيح، وضعت أذنها على الباب فصعقت حين ســـمعت بعض الألفاظ النابية وارتجت الأرض بها، اختلطت عليها الأمور وشكت أن يكون على علاقة بأخرى وتمنت لو أن يكون الأمر فثمة فرصـــة عظيمة لو اكتشـــفت خيانته لها، تمنت لو أنها علمت موعد هذا اللقاء أو موقعه لكنها عزمت على البحث وراء الأمر وبين شرود ذهنها وحيرتها شـــعرت به ينزل من الطابق العلوي مرتجلًا وحثيثًا فتسـمَّر وارتبك وتلعثم حين رآها:

- حبيبتي، أنتِ هنا؟! قالها بعد أن توقفت قدميه عن الحركة.

- نعم، رجعت للتو من الخارج وجلسـت أسـتريح، قالتها نغم في رباطة جأش وهي تتحاشى النظر إليه ثم اضافت:

- ظننت أنك نائم، فخشيت إزعاجك.

- حاولت النوم حقًا، لكن جاءني اتصـال من حسـام بضرـورة الحضور إلى المكتب.

أومأت برأسها ونظرت إليه نظرة استحقار واشمئزاز وقالت:

- إذًا أسرع كي لا تتأخر على حسام.

نظر إليها حاتم مرتبكًا وخرج من المنزل مُغلقًا الباب خلفه وكأنه أحكمه عليها مع أفكارها، فقامت من موضعها صاعدة إلى غرفة نومها وهي تفكر بالأمر حتى جلست على فراشها، عصفت بذهنها الأفكار وهي تتحدث مع حالها وتقول، ماذا يحدث لو اكتشفت أنه على علاقة بأخرى؟ هل أخبر والدي الذي لن ينصفني معه، أم أخبر حاتم علنًا باستحالة العيش معه؟ ومن تكون هذه التي يحادثها؟ استندت بظهرها على الفراش وراحت تتذكر أنه أخبرها في لقائهما الأول أنه كان على علاقة بفتاة من خارج مصر، فأوجست في نفسها خيفة ومارست الضغط على ذاكرتها أكثر، تدفقت الأفكار في رأسها وحاولت أن تذكر أي مكان تعرفه له غير قسم الشرطة ومنزلهما، فحدقت بنظرة جامدة وحادة نحو النافذة عند تذكرها بشقته في السادس من أكتوبر التي كان يسكن فيها أثناء دراسته بكلية الشرطة.

****

صـــيف 2012، عمّان عـاصـــمـة الأردن، المـدينـة السـاحرة لا تخطئ عيناك فيها الجمال أيما نظرت، تتحسـه في أشــكال الجبال المتكدســة بالبيوت التي صــممت تصــميمًا معماريًا مدهشًـا، ذات اللون الواحد، كأصـابع البيانو البيضـاء، تمتاز الأردن بوفرة حجر البناء وتنوعه ما بين الحجر الجيري والرملي التي شـــيدت بهما بيوت الأردن، يتميز أهلها بالعراقة والأصـــالـة والموروث الـديني والثقـافي في الزي والأعراف والتقـاليـد، تجمع الأردن كل ثقافـات أهـل الأرض بين مُدنهـا وضواحيها وأزقّتها، تجتمع فيها اللهجات واللغات والجنسيات كما تجتمع الفاكهة المختلفة في سلة واحدة، يمشي على ترابها كـل الأجنـاس العربيـة، تعتبر العشـــائر هي المكون الرئيس للمجتمع الأردني وعلى الرغم من أن الأردن تمتـاز بـالحـداثـة والثقافة والرقي، لكن العشـــائر وأبناءها يحتفظون بعاداتهم العربية الأصيلة.

حصل مراد على عمل بعد فترة من تواجده بالأردن في مطعم للمأكولات الشرقية، سـاعدته هيئته ومظهره الجيد أن يكون محط اختيار صــاحب العمل على أن يعمل نادلًا، تذكر حينها حديثه مع نغم حول النادل الذي كان يوجد بالمقهى في مصر- فتسربت منه ابتسـامة لا يعلم مغزاها غيره، حصـل على راتب ضــئيل كونه مســتجدًا في العمل وخبرته معدومة، لكن

هذا الراتب الضـــئيل يشـــكل فارقًا كبيرًا حين يقوم بتغييره إلى العملة المصرية فهو في مصر لم يكن يحلم بنصفه.

اسـتمر في عمله بشـكل دَؤوب يسـتيقظ في الخامسـة فجرًا يصـــلي ويرتدي ملابســـه ويخرج ذاهبًا إلى العمل الذي يبعد عن مسكنه أكثر من ساعة مشيًا على الأقدام، والطرق في الأردن ما أقسى. السير بها مرتفعات ومنخفضات نظرًا لطبيعة البيئة الجبلية، ولم يملك حينها رفاهية أن يســـتقل ســـيارة للأجرة، يصـــل إلى عمله يقوم بالتحضـــير عن طريق مســـح الطاولات والكراسي والأرضـيات ودورات المياه وتعبئة العُلب الصـغيرة للملح التي يكتب على غطاءها (S) والفلفل الأسـود (P) وكارثة مدوية إن أخطأ في وضـــع واحدة بدلًا من الأخرى عدا عن توبيخ مديره، فقد يقوم الزبون بتغيير الطلب كاملًا لأنه أكثر من وضـع الملح بدلًا عن الفلفل الأسـود، وقد يكون الزبون لطيفًا ويتغاضى ولكن مدير المطعم لم يكن لطيفًا أبدًا فهو يتلصص على كل طاولة كالكلاب البوليسية التي تشمشم رائحة المجرمين، الإداريون بصـفة عامة هم أشـخاص تهوى أقلامهم وضع الخصومات، يتلذذون بفرض العقوبات.

كان مراد نشـيطًا لا يملك خيارات أكثر من أنه يريد أن يجني المال الذي يحقق له مكانة مناسـبة وسـط الأقمار أو أن يحالفه الحظ ليكون من ســـلالة الكواكب، لفت إليه أنظار

الجميع من اجتهاده وأحبه صـــاحب المطعم فكان يعمل في صـمت، ينفذ دون تذمر، لا يعترض، بل لا يناقش، وهي كانت نصيحة صديقه محمود ذات ليلة حين أخبره قائلًا:

- تزيد الحاجة إليك عند صـــاحب العمل كلما قل حديثك، ويزيد محبته كلما زاد نفاقك، ولكن كن من المبالغين لا من المنافقين.

فرد عليه مراد وهو يضحك قائلًا:

- سأتعامل معه على طريقة: (أجمل الشعر أكذبه).

توالت الأيام ومراد يعمل بكدٍّ ونشـــاطٍ؛ مما أثار الضغينة في قلوب بعض العاملين بالمطعم ومن بينهم المدير الذي أحس أن صـــاحب المطعم معجبًا بمراد بعد أن جلس معه، وعرف أنه خريج كلية تجارة مما ســـيجعل بإمكانه أن يعتمد عليه في بعض الأمور الحســابية فلما علم المدير بذلك اســتشــاط غيظًا وانقلبت معاملته مع مراد فكلما رآه جالسًــا اخترع له عملًا، ولو وجده يصلي يحثه على الإسراع في صلاته وإذا رآه يأكل يستعجله بالانتهاء.

يحاول مراد أن يتغاضاه، يتحاشى الصدام معه، وذات يوم شعر مراد بالجوع يمزق أحشائه، ولم يستطع أن يقاومه، فترك الصـــالة التي يجلس بها الزبائن وطلب من زميله وكان

شـابًا أردنيًا صـغير السـن أن يتابع حركة العمل لحين رجوعه، دخل مراد الغرفة الصـغيرة التي يفرغوا فيها الصـحون ويلقوا فضـلات الطعام في أكياس بلاسـتيكية كبيرة، وحين تمتلئ السـلة يأخذها أحد العاملين على حاويات القمامة يلقيه فيها، فدخلها مراد باحثًا عن أيِّ فتات يقتاته، فوجد صحنًا به صدر دجاجة عائدًا من زبون في صحن لم يصِبه فم إنسان، فرمقها بعينيه اللتين تلألئان، وحدق في الصـحن بشـهية الجائع وشـهوة المحروم، ابتهج كأنه على أعتاب موعدٍ غراميٍّ وهجم عليها هجوم الأسـد على غزالة اصـطادها للتو، رائحتها تملأ أنفه واقترب منها مبتسمًا، وقضم منها قطعة بأسنانه وإذا بيد تأتيه من الخلف تمسـك بصـدر الدجاجة من يديه وتلقيها في سـلة القمامة، كان مدير المطعم هو الذي يقف خلفه وينهره قائلًا:

- هذا الطعام لم تقُم بدفع ثمنه.

- اغتاظ مراد وغضب وحاول ألا ينفعل وقال:

- لكنه سـيكون مصـيره في القمامة كما فعلت الآن وأنا جائع، أليست معدتي أولى بالطعام من سلة القمامة؟!

- كيس القمامة له فائدة عنك.

لم يتمالك مراد نفســـه وصـــفعه بالقلم، هاج المدير وماج واحتنق وثرثر وتمتم وشـــتم حتى تفاجئا بدخول صـــاحب المطعم، وكان رجلًا طاعنًا بالســـن بعدما علا صراخهم وضـــج المكان بصوتهم:

- شو فيه؟ هيك بيصير منك مراد أنت وعُديّ؟ قالها صاحب المطعم غاضبًا بعدما أغلق الباب.

بدأ مراد بالحديث وأخبر صـــاحب المطعم عن القصـــة كاملة فنظر حانقًا إلى عُديّ ثم عاد بالنظر إلى مراد وقال:

- لكن هذا لا يعطيك الحق فيما فعلت.

أجهش مراد بالبكاء بما شعر به من إهانة وتحقير وردد يقول:

كنت أتضـــور جوعًا ولم أسرق، بل كانت قطعة دجاج لا صاحب لها.

فطلب صاحب المطعم منه الاعتذار لعُديّ واعتذر مراد إليه، وأمر صـــاحب المطعم عُديّ بالخروج بعد اعتذار مراد وقال متجهًا نحو مراد:

- أخطأت في فعلك، ولو لم أعرف كفاءتك وتفانيك في العمل وضِف عليها اعتزازك بنفسك لفصلتك حالًا من العمل، لكن يا بنى ما حملك أن تأكل فتات الناس؟

- الجوع هو ما فعل بي هذا.

ربت الرجل على كتفيه وقال:

- أيدفعك الجوع لعدم التمييز بين الصالح والطالح؟

أجابه مراد وهو يمسح عن مقلتيه الدموع:

- الجائع الحقيقي لا يُفرق بين صحن كرستالي وسلة مهملات.

****

لم تخلُ حياة نغم من الحزن، لم يغِب مراد عن ذاكرتها ليلة واحدة، تتخيله في أدق تفاصيلها، في يقظتها ونومها وأحلامها، بالرغم من مرور وقت شارف على العام لكنه يقبع في صدرها لا يزيله زائل ولا تمحوه أيام، ولم تصله مخالب النسيان، شعرت أحيانًا بالذنب تجاه حاتم الذي ليس له ناقة ولا جمل في خيبتها غير أنه كان الحد الفاصل بينهما، يعاملها بلطف وود لكن مؤشرات استجاباتها لا تستقبل ترددداته، هو هاديء لا يغضب، يُشارك لا يفرض ويناقش لا يأمر، أصبحت تؤرقها الشكوك وباتت تمنحه قدرًا كبيرًا من التركيز والتدقيق حول مواعيد رجوعه إلى المنزل مما أثار

دهشــته حينًا وغرابته في مواضــع كثيرة حينًا أخر، عندما يأتي متأخرًا معتذرًا عن انهماكه في العمل وانشـــغاله في بعض التحريات والأوامر التي يتلقاها أو عندما يهاتفه أحدًا فيقوم من جوارها ليتحدث بعيدًا.

اتصـلت نغم على هاتفه وجدته مغلقًا، فراودتها فكرة أن تتقصـــى أخباره من زميله في العمل حسام، متحججة أنها تحاول الوصول إليه في أمر مهم لكن هاتفه لا يجيب، تناولت هاتفها وعزمت على الاتصال بزميله حسام:

- أهلًا مدام نغم!

- مرحبًا حسام، حاولت الاتصال على حاتم لكن هاتفه مغلقًا، هل هو بجوارك؟

- خرج منذ أكثر من ساعة.

نظرت نغم في هاتفها فوجدت السـاعة الثانية عشر منتصـف الليل.

انتبهت أن حسام ما زال على الهاتف فقالت:

- ألم يخبرك إلى أين هو ذاهب؟

- قال أنه ذاهب إلى المنزل يحتاج إلى بعض الراحة.

اندهشت من جوابه التي لا يدع مجالًا للشك وقالت:

- شكرًا حسام.

أغلقت الهاتف دون ســماع رد الشــكر إليها. جلســت نغم متصلبة تفكر ماذا تفعل!

تملك دائرتان بحاجة إلى حلقة وصــل، الدائرة الأولى علاقته الســابقة التي انتهت قبل زواجهما على حد قوله معها في أول لقاء بينهما في منزل والدها، والدائرة الثانية شــقته القديمة التي لا تعرف موقعها تحديدًا، وبالرغم من مرور الأيام على هذا الحال لكن حاتم ظل يحاول أن يبدو لطيفًا، لكن عقل المرأة حين تملأه الظنون التي تضج مضجعها لا تعرف أن تبدو طبيعية مهما كلفها الأمر من عناء. وعلى هذا النحو الثقيل تترنح علاقتهما دون رغبة متبادلة، واكتفت نغم بأن تبقى الظنون ظنونًا حتى إشعار آخر.

****

في الحجرة الضيقة تناغمت أصوات شخير النائمين في إيقاع محزن، لكلٍّ منهم أمر يغنيه، يســتمع مراد لرواياتهم فيحزن أن ضاقت مصر- عليهم بما رحبت بأرضها وسمائها

ونيلها وثرواتها لتلقيهم في غياهب الغربة، تقطر قلوبهم حنينًا فيعُض عليها الفقر لتهدأ.

في الغربة قد يموت والدك وتمنعك الظروف القاسيات من تشييعه إلى مثواه الأخير، أن تموت والدتك دون أن تُقبل رأسها وتضمها إلى صدرك معتذرًا عن طول الغياب في وجع لا يشعر به سواك، في الغربة تبكي وحيدًا، تتألم منفردًا بذاتك، تمر الأيام على مضض، تشيخ دون كِبر، تساورك الشكوك بأنك خُلقت كآلة للعمل لا تملك رفاهية الراحة، يولد لك مولودٌ تعجز يداك عن ضمه، يتزوج عزيزٌ فلا تستطيع مشاركته، يحزن صديقٌ فلا تقدر أن تكون بجواره. المغترب تنمو أولاده على هاتفه دون عينه، يرجع ليحتضنهم لا يتعارفون عليه، يقيسون حجم الحب بداخله بحجم الهدايا التي يرسلها، لا يعلمون أنه يقف في أجمل زاوية في الحجرة حين يحادثهم ليروه في عيشة رغدة، يشبع إن نامت بطونهم ممتلئة، تتقلص الأحلام في عينيه يومًا بعد يوم، يفقد شغفه تجاه الحياة، تنحَل الأيام من قلبه كما تنحل شعر رأسه، يأكل ما تيسر أمامه ليوفر لأهله ما يتمنون، يعيش في غربة ويروه غريبًا، ويحدث ألا يعود منه سوى جثمان.

يُخيل إلينا أن القلوب لا تفترق، لا، القلوب هي أكثر ما بداخلنا يحتاج إلى عناق، القلوب تحتاج إلى يدٍ ترمم هشاشتها وتُصلح فيها ما أفسدته سنوات الإغتراب.

حزن مراد على حاله وعلى من تتقلب جنوبهم على شوك الانتظار وألم الحنين فأغمض عينيه وراح معهم مغشيًا عليه من الأرق ليؤازرهم بشخير عميق.

****

ترك مراد عمله كنادل ودخل يعمل في غسيل الأطباق بعدما اتفق معه صاحب المطعم أن يكون عقابًا مؤقتًا متفقًا عليه لترضية عُدي ليحفظ له كرامته المهدرة بعد أن صفعه مراد. لم يجنِ مراد من بعد هذه الواقعة غير الأسى والمعاملة السيئة والأوامر التي لا تنتهي، وبالرغم من كل هذا كان يثلج صدره أنه لم يسمح لأحد بإهدار كرامته وأن تؤخذ اللقمة من فمة ليُلقَى بها في القمامة، وهدأت نفسه عندما لطم عُدي على وجهه وكأنه صفع وجه الغربة وكل من خذله.

دبَّر عُديّ مكيدة لمراد، قام بالاتصال على وزارة العمل يخبرهم أن هناك عامًلا يحمل الجنسية المصرية مخالفًا لقوانين العمل في مطعم للمأكولات الشعبية، كان يعلم أن تصريح إقامة مراد لا يسمح له بالعمل بالمطاعم ولا يحق له العمل في غير المزارع بمحافظات الأردن وليس بالمدينة عمَّان، وبعد ساعات قليلة وصل ضابطًا يرتدي الزي المدني وشرطيان، انتبه لهم زميل مراد بالعمل وهرول إليه يخبره بسرعة وهو يركض وينهج:

- شرطة الوافدين يا مراد، اركض على السطح يا زلمة راح يمسكوك.

دارت الأرض بمراد يتخبط في كل زاوية وجدار حتى رآه الزبائن مندهشين من تصرفه فصعد من غرفة المخزن بالطابق العلوي نحو السطح، في هذه الأثناء يتحدث صاحب المطعم مع الضابط المدني بعد أن أمر الشرطيان بالبحث عن العمالة المخالفة وتفتيش المكان بأكمله.

- أهلًا سيدي، كيف يمكنني مساعدتك؟ سأل صاحب المطعم.

تحدث الضابط وهو ينظر حول المكان:

- أين العامل المصري المخالف لقوانين العمل هنا؟

تعجَّب صاحب المطعم من حضورهم قاصدين شخصًا بعينيه وهذا الأمر لا يحدث غالبًا إلا في حالة أن يتم الإبلاغ عن شخص بعينه.

- ليس لدينا أي عُمّال مخالفين سيدي، نحن نلتزم بالقوانين.

نهره الشرطي وأبعده عن طريقة قاصدًا الطابق العلوي وهو يطلع مشيرًا لمعاونيه أن يتبعوه.

- لنرى الآن إلى أي درجة تلتزم بالقوانين!

جرى الشرطيان نحو المطعم بالداخل يطلبون من العاملين التصاريح، فتدخل عُديّ مدير المطعم قائلًا:

- الشاب المصري بالطابق العلوي سيدي.

صعد مراد يجري ويلهث مرتعدًا وخائفًا، تزاحمت الأفكار برأسه، لا يعرف أين يلقي بنفسه، نظر حوله في المكان وجد سطحًا موازيًا ولوحًا خشبيًّا كبيرًا بجوار الحائط، فكر في عجالة من أمره أن يخادع الشرطة، فقام بوضع اللوح بين البنايتين وأمسك بعلبة صفيح كانت تُستخدم لزيت الزيتون، ورماها في البناية الموازية لتصدر صوتًا يوحي بأن ثمة شخص قفز إليها ليضلل الشرطي الذي يلحقه إلى السطح، فوجد مراد خزانًا للمياه مفتوحًا، فلم يتردد لوهلة وألقي بنفسه داخله كان به ماء قليل وأغلق الغطاء عليه.

يجلس مراد داخل الخزان، لا يتنفس، لا يتحرك، لا ينبس ببنت شفة، أغلق هاتفه مخافة أن يصدر صوتًا، مرت عليه اللحظات ثقيلة ومرعبة، بعد ثوانٍ قليلة وصل الشرطي إلى السطح ووجد اللوح الخشبي، فدخلت عليه الخديعة وقف للحظات ينظر من سطح البناية إلى الشارع يمينًا ويسارًا، ويدور حول السطح واضعًا يده على خزان المياه الذي يوجد مراد بداخله، فأحس بقيظ الحرارة حتى يأس من العثور عليه ورجع بلا جدوى.

****

استلقت نغم على أريكتها في غرفة نومها تتصفح هاتفها تقرأ بعض أخبار الأصدقاء على مواقع التواصل الإجتماعي، تراقب مراد من خلال اسمًا وهميًا لتتحرى أخباره من بعيد دون أن يعلم.

مراد الذي جرى القدر فوق رقبته داهسًا كل أحلامه وضغطت الحياة عليه بكامل عزمها، بات غريبًا في أرض غريبة، لا تعلم عن غربته شيئًا كما لا يعلم عن وحشتها شيئًا، تتفقد مفاتن أنوثتها حين تذكره، لم تستطِع نسيان قُبلته التي

وضـــعها على شـــفتيها في غفلة من العادات والأعراف. كان الرجل الأول الذي وطئ قلبها ومر على حضـــارة نهديها مرور النبلاء، ارتوت من ينابيع قصـــائده حتى اكتمل نمو الحب بداخلها. أخبرته ذات حديث أن للنســاء بصــمة خاصــة بهن دون الرجال تســـمى بصـــمة الجســـد، يعثر عليها الرجل عن طريق الرغبة فيه لا الرغبة منه. لا تمنحها إلا لمن يصـل قلبها قبل أن يصل جسدها.

انتبهت لوجود إشـعار رسـالة على الشـاشـة المضـيئة جـاءتهـا من خلال تطبيق الواتس آب، نظرت عليهـا من الإشـــعارات كانت لرقم مجهول، قامت بفتح الرســـالة وجدته فيـديو يظهر فيـه حـاتم وشـــخص آخر فقـامـت بفتحـه وشـــاهدت، فتحتت فمها، اتســـعت حدقتا عينيها، توقفت الدموع في مقلتيها، تجمدت الدماء في عروقها، نهضت لم تقو على النهوض فظلت جالســـة، يســـير شريط الفيديو فتغمض عينها عن المشاهدة مشمئزة، تهطل دموعها في صمت، رمت الهاتف بعيدًا، وصرخت منكبة على نفســـها، انكفأت على وجهها في الأرض، لطمت على خديَّها، تقطعت أنفاسـها، تدور في غرفتها تمســـك قنينة العطر وتلقيه في زجاج الخزانة لينزل قطعًا صغيرة.

في خضم هذه المشاعر دخل عليها حاتم مهرولًا مسرعًا:

- ماذا جرى؟ نغم، نغم!

أبعدته عنها، ضربته في صـــدره بيديها حتى أمســـك بيديها حاولت التملص ونجحت في ذلك وصـــفعته على وجهه وهي تقول:

- يا قذر، يا قذر.

زج بها على الفراش محاولًا أن يفهم ما يدور، فوقعت بجوار الهاتف وردد ثانيًا بصراخ عال مستفهمًا:

- ماذا حدث لكل هذا؟ اهدئي.

- اهدئي! كيف لي الهدوء بعدما رأيت من قذارة؟ وصرخت:

- ما ألعنكَ!

لطمها على وجهها فارتطمت بالحائط.

اقترب منها بكل الغضـــب ومســـك برأســـها بين يديه ليضربـه في الحائط فتراجع، وهي تحاول الفكاك من قبضـته، ترتعد، ترتجف، تصطك، تبكي، يسيل لُعابها من فمها وأنفها، اختلطت كل المســـاحيق بالدمع والعرق. ترتعش بين يديه فصرخ فيها حتى خرج زبد فمه في وجهها وقال:

- ماذا جرى؟ أخبريني لا أريد إيذاءك.

تملصت منه بكامل عزمها وأمسكت بهاتفها وفتحت الرسالة ووضعت الهاتف بوجهه يكاد أن يلتصق بعينيه وهي جامدة النظرة ساخطة عليه.

تهاوت يديه وفتح فمه بوسع شدقيه وانتكس رأسه قائلًا بصوت لا يكاد يسمعه أحد:

- مستحيل.

حاول أن يقترب من نغم وهي متقوقعة على الأرض، انتفضت عندما شعرت بيديه تقترب:

- ابتعد، ما أنجسك!

رفع رأسها بهدوء وصارت دموعه تتهاوى منه ممسكًا بها من ذراعيها وهي في بكاء متواصل لا يتوقف وقال:

- أنا آسف.

رفعت رأسها تنظر إليه في ثبات وجمود وبصقت في وجهه.

أغمض عينيه ونهض مبتلعًا بصقتها في صمت وخنوع وغادر الغرفة مسرعًا تاركًا نغم مغشيًا عليها.

****

ذهب حاتم مسرعًا، يحمل مسدسه في يديه، يضعه بجواره في السيارة التى صرخت إطاراتها في الأرض فور انطلاقها غاضبًا، حزينًا، كأن صاعقة أصابته من السماء فحال رعدًا وبرقًا بعدما شاهد الفيديو، علمت نغم أن زوجها الموقر شاذًا جنسيًا.

توقف حاتم بسرعة البرق أمام العمارة، صعد على السلم لم ينتظر المصعد، أمسك مسدسه بيده وشد أجزاءه جاهزًا لإطلاق رصاصة فاقدًا عقله. أخرج المفتاح بسرعة رهيبة من جيب بنطاله يحاول فتح الباب وإذا بالباب مفتوح، ذُهل حاتم، كيف يكون الباب مفتوحًا وليس مع أحد غيره نسخة؟ كيف خرج أمير من الشقة؟

والله لأقتلنه وإن كان في بطن الحوت، خرج من الشقة تاركًا أبوابها مشروعة، نزل مهرولًا يتخبط في الحوائط يغلي الدم في عروقه، تسمع العمارة كلها وقع أقدامه على الرخام، استقل سيارته وشغل محركها عازمًا على الذهاب إلى منزل أمير حيث وجده أول مرة في حارة شعبية، تتكاثر التساؤلات في ذهنه بين ماذا وكيف؟

- كيف عرفت نغم؟ وماذا تفعل؟ كيف خرج أمير؟ وماذا يفعل؟ كيف استلسم لميوله؟ وماذا يفعل؟ فقال وهو يصرخ في السيارة:

- سأقتله، سأقتله، سأقت...!

وفي غمرة غضبه اصطدم حاتم بشاحنة كبيرة فانقلبت السيارة عدة مرات وبعد دقائق قليلة انفجرت السيارة.

****

«إن في الحب شيئًا من الجنون،
ولكن في الجنون شيئًا من الحكمة»
- فريدريك نيتشه

تبكي رزان وهي تروي تفاصـــيل حادث حاتم المؤلم، تـذكرت علاقتهما معًا وليال الحـب الجميلة في نيل مصرـــ وشـــوارعها، كانت تحب حاتم كثيرًا، حتى بعد انتهاء العلاقة بينهما ظلت تتواصـــل معه من حين إلى آخر، وتذكرت يوم علم من خلال منشـــورها على الفيس بوك بقبولها في إحدى المحطات الفضـائية الأردنية تقدم برنامجها الجديد، اتصـل بها وبارك متمنيًا لها التوفيق والســـداد، حاولت رزان تجفيف دموعها بعـدما تشـــنجت قليلًا، والجلوس بعضـــهم يبكون مشفقون عليها.

حاول أنور التدخل ليُهدئ من وقع الأحداث عليها، ليخمد النار التي اشـــتعلت بداخلها وقال بعدما اســـترخى في مقعده:

- وكيف استقبلت نغم حادث حاتم؟

هدأت ملامح رزان قليلًا ومسحت عينيها بمنديل التقطته من المنضدة التي أمامها وقالت:

- اسـتقبلت نغم حادث وفاة حاتم من صـديقه الملازم حسـام الذي أخبرها عن انفجار ســـيارة حاتم، وقعت مغشـــيًا عليها وجرت تهرول إلى مكان الحادث، تلوم نفســـها طول الطريق

وحين وصـــلت إلى مكان الحادث ورأت الســـيارة مفحمة لم تسـتطِع الثبات وسـقطت مغشـيًا عليها فاقدة للوعي، دخلت على إثرها المستشفي تعاني من إنهيار عصبي حاد.

****

يأكل الندم قلب نغم، ولا تعلم هل هي شـــفقة منها عليه أم حزنٌ على موته، وبعدما استردت عافيتها زارها حسام بالمستشفى ليطمئن عليها حاملًا بعضًا من الورود التي وضعها على كرسي بجوار الحائط وقال:

- لا أعرف هل أبدأ بالتعزية أم التهنئة لسلامتك؟

حاولت نغم أن تعتدل في جلستها قدر ما استطاعت، ما زالت تعاني من إرهاق شديد وأمسكت حجابها وأسدلته على شعرها ليُغطى كاملًا:

- شكرًا لقدومك حسام.

- أعلم أن الجائحة عظيمة والمصاب كبير، كان الله في عونك.

- شكر الله سعيك.

- كيف كان الحادث؟

- تنهد حسام واستعصمت الكلمات عن الخروج واقفة في حلقه كغصة وأخبرها أنه كان اصطدامًا بشاحنة كبيرة حاول تفاديها، لكن لم يستطِع فانقلبت السيارة على الطريق مما أدي إلى انفجارها وكان هناك خيمة لرجل يبتاع الفاكهة على الطريق فانحرقت الخيمة أيضًا ومات الرجل.

بكت وهي تستمع لرواية حسام عن الحادث، وأن هناك رجلًا آخر توفى لا علاقة بينه وبين حاتم سوى قضاء الله. شعرت بالضيق والألم يغمران قلبها، صمت حسام لحظة احترامًا لدموع نغم ونشيجها ثم سكت فقالت:

- أكمل من فضلك.

- لم نستطع التأكد من ملامح حاتم بيه، لكن تحليل المعمل الجنائي أثبت أنها جثته.

- المديرية في خدمتك في أي وقت مدام نغم.

اتجه ناحية الباب ثم التفت إليها وهو يقول:

- البقاء لله وحمدًا لله على سلامتك.

****

استيقظ مراد وهو يلهث منزعجًا، لا يكُف عنه الحلم الذي يتكرر بين الليلة والأخرى، قام محاولًا النهوض ليغتسل ويذهب إلى صلاة الجمعة، ترك عمله في المطعم بعد واقعة الإبلاغ عنه، خشى أن تُدبر له مكيدة أخرى، لم يكن على استعداد للرجوع إلى مصر بالوقت الحالي، فهو على مشارف انتهاء عامه الأول في الأردن وبدت الحياة أقل تعقيدًا، تردد على أكثر من وظيفة لم يوفق في بداية الأمر في أي منهم، لا يعطيك العمل كل شيء، يأخذ بقدر ما يعطي، لو حصلت على الوظيفة المناسبة كان المناخ المحيط بها سيئًا، ولو أحسنت في اختيار المناخ المحيط لوجدت المقابل المادي غير مُرضٍ ولو اجتمع كلاهما فلا بد وأنك في بلد غير عربي. يبحث مراد عن عمل يحقق آدميته أكثر ما يحقق طموحه.

وجد له أحد أصدقائه وظيفة شاغرة تسمح له باستخراج تصريحًا للعمل في إحدى المستشفيات الخاصة بعمّان، على أن تكون طبيعة عمله عاملًا للنظافة، يستيقظ من نومه فجرًا ليصلي ثم يستعد للذاهب إلى عمله من الساعة السابعة صباحًا وحتى السابعة مساءً بدوام كامل، كان سعيدًا بالمقابل المادي الذي يتقاضاه فهو لا ينسى دائمًا أنه من ليلته الأولى

بالأردن وهو ينام بجوار الحمام، فلم يبخل عليه القدر بأن يجعله مسؤولًا عن المراحيض.

علّمته الغربة أن يضع مشاعره على شماعة كما يضع ملابســـه ويُنحي عواطفه جانبًا ويدخل وحده دونها باب العمل، يصـــل إلى فراشـــه متعبًا لا أحد ليخبره كيف جرى يومك؟ يتكلم مع والدته يطمئن عليها كل يوم قبل نومه، يخالجهما البكاء دومًا فيهزمانه مرة ويهزمهم مرات، يســـتلقى على أريكته مجهدًا، لا يفتأ أن يتذكر نغم كل ليلة قلما تغيب عن ذهنه يحتضـن أحزانه بين صـدره مهترئ النفس، تطحنه الغربة على رحى الأيام، حاول مرارًا أن يقدم ذكرياته مع نغم وجبة دسمة للنسيان لكنها كانت أدسم من أن تمضغ في عام.

تحمم وتوضـأ ولبس جلبابًا فضـفاضًـا وخرج ليصـلي الجمعة في مسجد الحسين بمنطقة وسط البلد الذي يُعد من أكبر مساجد الأردن وأقدمها تراثًا، ذهب إلى المسجد وفرغ من صـلاته، أخرج هاتفه من فوجد صـديقه بالسـكن يتصـل به يطلـب منـه حزمتين من الجرجير ويحثـه على عـدم التـأخير لتناول الغداء، اتجه نحو سـوق الخضرـوات واقترب من امرأة تفترش الرصـيف بجلباب أسـود فضـفاض، لم يرَ وجهها من بعيد، مطئطئة الرأس وأمامها حزم الخضـــــروات المختلفة؛ جرجير، فجل، بقدونس، خس، كزبرة وبصل أخضر.

انحنى مراد واقترب منها قليلًا ينبش بين الخضـــوات الموجودة أمامه ليختار أفضـــل حزمتين، فأمســـك بحزمتين يقلبهما يمينًا ويسارًا وأعاد ما أفسد ترتيبه إلى موضعه، وضع يده في جيب جلبابه ليخرج بعض النقود المعدنية ويعطيها باسطًا يديه نحوها وهو يقول:

- تفضلي يا خالة.

انتظر منها أن تبســـط يدها أو أن تتحدث لم تفعل أيًا منهما، فانخفض ليضـــعهم أمامها على الخضـــوات فأمســـكت يده فـانتفض وحـدَّق فيهـا كـادت أن تتهـاوى من يـده حزمتيَّ الجرجير، نظر إليها وهي ترفع رأسـها في تريث وفتور حتى ظهر وجهها بأكمله أمام عينه، ارتجف بدنه حتى أخمص قدميه، تفـاجـأ وبرقـت عينـاه في دهشـــة وذهول وشيء من عـدم التصديق وقال بنبرة خفيفة:

- أنتِ!

ظلت كما هي هادئة لا تتحرك، ســـاكنة لا تتحدث وأشـــارت بيديها تحثه على الجلوس، فجلس.

بدأت تهدأ روحه، تستريح ملامحه ويجري الدم مجراه.

- كنت أشعر بمجيئك؟

- أراكِ في أحلامي دومًا.

- ماذا فقدت في الطريق؟

- فقدت نغم.

- أحيانًا يبحث المرء عن ضالته حتى يضل.

- وقد يهتدي دون ضلال.

- لتبقى المشيئة فوق الرغبة يا ولدي.

صمت دون تعليق وشرعت في وضع الماء على الخضروات، زاد ضيق مراد واقترب منها سائلًا:

- من أنتِ؟ لا أعتقد أن لقائك من قبيل الصدفة.

- الصُدف يا ولدي كلمة من صنع البشـــر وإنما هي عند الله أســبابًا وأقدارًا، وقد تتحقق إرادة الله في أن تبلغ مرادك وقد تتحقق في عدم البلوغ.

- وماذا عنكِ؟

قالت وهي تتحسس يديه في هدوء وتربت عليها:

- اطئمن، قد يجعل الله في المنع النعم وفي العطاء النقم، واعلم أن الناس رسـائل تمشـــــي على الأقدام، فقط أدِّب

حواسـك على التأمل يمنحك الكون رسـائله، وأضـافت وهي تحدق في عينيه:

- إن الرشد يا ولدي في أن تتجنب المخاطر لا في النجاة منها.

ثم صمتت لوهلة وهو يستمع في انتباه وتحديق وأضافت:

- اتبع قلبك فيما يخف لا فيما يحب.

نهض مراد يتخبط في أفكاره مشتت الذهن، شارد الروح وأخذ حزمتي الجرجير وعزم على الـذهـاب غريقًـا في أفكاره، فنظر خلفـه يشـــكرهـا فـانـدهش عنـدمـا لم يجـدهـا وارتجف غير مصدق ما حدث وذهب متجهًا إلى مسكنه.

****

بعدما اسـتمع الحضـور لسرد رزان عن خبر وفاة حاتم من صديقه حسام قالت أن جثته لم يتعارف عليها أحد كانت مشـوهة، اتكأ أنور على يديه وقال وهو يبتسـم ابتسـامة ماكرة وينظر في عيني رزان التي بدت ملامحها جامدة من كثرة البكاء وقال:

- وكيف كانت علاقتك بمراد؟

هدأت ملامحها وسرق السـؤال ابتسـامتها عنوة ثم تنهدت فاتحة ذراعيها تلملم شعرها عن عينيها وقالت:

في أحد الأيام طلب صـاحب القناة مقابلتي ليعرض عليّ فكرته في اكتشاف مواهب شابة جديدة في الأدب والشعر والرسـم، كنت سـعيدة جدًا بهذه المبادرة منه وأثنيت عليها كثيرًا وازدادت سـعادتي عند إخباري بأنني سـوف أكون مقدمة البرنامج، لكن بشـرط وحيد أن أقوم بالبحث والتنقيب عن المواهـب الموجودة بـالأردن من الأردنيين والجنسـيات المختلفة، قمت بوضع منشور على صفحاتي بمواقع التواصل وطلبت من الأصـدقاء مراسـلتي في حين العثور على موهبة جيدة.

تفاجأت عندما وجدت رسـالة من نغم تحمل رابطًا لصـفحة على الفيس بوك قبل وفاة حاتم بشـهر تقريبًا، قمت بفتح الرسـالة وجدتها صـفحة باسـم مراد عاشـور، اتصـلت عليها مباشرة وبعد رنات قلية قامت بالرد:

- مرحبًا، قالت رزان التي لم تنس أنها زوجة حاتم حبيبها السابق وكانت تعلم أن نغم لا تعرف عن علاقتهما شيئًا.

- مساء الخير، قالت نغم، ثم أضافت:

- اشتقت إليكِ.

- وأنا أكثر، كيف حالكِ؟

- بخير، ثم أضافت:

قرأت منشــورك على الفيس بوك تبحثين عن مواهب شــابة، وأردت إخبارك بأن لي صــديقَ دراســة يعمل الآن في الأردن شاعرًا موهوبًا.

تحمست وبدت ملامحي تبتسم لأن الوقت الذي منحني فيه مديري لم يتبق منه الكثير وإن لم أجد مواهب شــابة سوف تقوم مذيعة أخرى بتقديم البرنامج وقلت في سرعة:

- من هو؟ وأين أجده؟

ابتســمت نغم حين أحســت بانجذابي وحماســتي للحديث وقالت:

- أرسلتُ لكِ رابطًا لصفحته وعليك التواصل معه إذا أردتِ.

- بالتأكيد سوف أتواصل معه. جاوبتها في إصرار.

- لكن... لي رجاءً واحد. قالتها نغم بنبرة هادئة.

- على الرحب والسعة طبعًا، أجبتها في حماس.

صــمتت نغم لوهلة، فشــعرت بأنني يجب أن أســتفسر عن رجائها.

- لكن ماذا؟

استجمعت نغم شجاعتها وحسمت أمرها وقالت:

- رجائي ألَّا تخبريه عن مكالمتي هذه ولا عن علاقتي بك،

وحاولت نغم التحجج بأي شكل فقالت:

- زوجي ضابط ولن يقبل بذلك لو علم.

نحرت كلمة زوجي رقبتي وقلت في نفسي لو تغيرت الأقدار لكان زوجي بدلًا عنكِ. استجمعت قواي وحاولت أن أبدو هادئة وأخبرتها أن رغبتها محط استجابة وشكرتها كثيرًا، أغلقت الهاتف ودخلت بسرعة على الرابط الذي أرسلته نغم لصفحة مراد.

تحدث أنور وهو يعتدل في جلسته متحمسًا ومخاطبًا الجمهور من وراء الشاشات وقال:

«أعزائي المشاهدين سوف نخرج لفاصل إعلاني سريع ونعود، ابقوا معنا».

****

عادت نغم إلى منزل زوجها المتوفى، تجرُّ أقدامها من الأرق، اســـتقبلتها العاملة أخذت منها حقيبة يدها وذهبت ناحية المطبخ، تنظر نغم إلى الحائط المعلقة عليه صـــورة حاتم مبتسمًا وهو بجوارها يوم زفافهما وقفت أمامها تسترجع الذكريات الســـعيدة والســـيئة، حين يموت الأشـــخاص تبدو تفاصـيلهم البسـيطة لا شـبيه لها، تغدو ذكرياتهم أسـطورية، كلماتهم مأثورة بالنفس، ابتسـامتهم فن مختلف عن كل أنواع الفنون وملامحهم مدعاة للبقاء. خانتها الدموع وراحت في بكاء مرير وهي تصـــعد إلى غرفتها في الطابق العلوي تســـتريح قليلًا وما إن ارتمت بجسـدها على الفراش حتى انتبهت لعاملة المنزل التي تســـتأذن الدخول لتخبرها أن رجلًا في انتظارها بغرفة مكتب حاتم بيه.

تأففت نغم وضـجرت من كثرة المراسـلات التي تشـد من أزرها وتواسيها. همت نغم في ضيق تتجه إلى غرفة مكتب حاتم، تُعنف نفســـها كلما ســـمعت اســـم حاتم يتردد على مسـامعها وتشـعر أنها النار التي اشـتعلت بجسـده، تلوم حالها أنها أخبرته عن الفيديو الذي أرســـله لها الشـــخص المجهول على هاتفها.

دخلت غرفة المكتب مرتدية فســـتانها الأســـود دون أي مساحيق تخطو في ألم:

- مرحبًا! قالتها نغم وهي تقترب من الرجل الواقف.

التفت لها الشـخص الواقف ينظر إلى صـورة حاتم الموجودة على حائط غرفة المكتب، فتجمدت أوصـالها وأغلقت الباب خلفها بسرعة رهيبة وقالت:

- أمير!

- لماذا أتيت إلى هنا؟ سألته وهي تجذبه من يديه ليجلس على كرسي المكتب

- البقاء لله. قالها وهو يسحب من جيب بنطاله الهاتف الذي صور به حاتم عاريًا وهما في وضع جماع ثم أضاف:

- أعتذر عن حضـــوري بلا موعد ولكني أتيت لتنفذين وعدك لي بأن تخرج أمي من السـجن وهاهو هاتفك بشريحتك، ومد يده في الجيب الآخر لبنطاله مرة أخري وأخرج مفتاحًا صـغيرًا يقدمه نحوها:

- وهذا هو مفتاح الشقة ليس لي حاجة به بعد الآن. قالها أمير وهو منكس الرأس وارتفع ثانية ينظر نحو نغم المتجمدة في مقعدها تحرق الدموع خديها.

- قمتُ بمسح الفيديو الذي أرسلته إليكِ، قالها أمير في إحراج شديد.

- شكرًا أمير، قالتها نغم وأخذت منه الهاتف والمفتاح وقامت تضعهم فى صندوق على مكتب حاتم الذي كان فارغًا إلا من بعض الوريقات وعلبة سجائر من نوع المارلبورو ثم عادت تجلس في مقعدها وأضافت:

- وأنت لست بحاجة لأخبرك بأن الأمر في غاية السرية ولو اكتشفه أحد لكنت في خبر كان.

- أعلم أعلم، قالها أمير وهو يطأطئ رأسه.

- إذًا يجب عليك الإنصراف الآن وألا تعود إلى هنا مرة أخرى وإذا احتجت أي شيء أخبرني عن طريق الهاتف، ثم أضافت نغم وهي تقوم من مقعدها فقام أمير هو الآخر:

- سأخبر الملازم حسام صديق حاتم بشأن والدتك وأسدد عنها الكمبيالات وسوف تخرج من السجن في أقرب وقت ممكن.

شكرها أمير واتجه نحو الباب خارجًا وجلست نغم بعد أن أغلقت الباب وراءه، وأجهشت نفسها بالبكاء، خيم الحزن أرجاء المكان وغابت في دموعها تتذكر تفاصيل معرفتها بأمير.

بعدما امتلأت رأسها بالشكوك وعلمت من صديقه حسام أنه خرج منذ أكثر من ساعة، قامت نغم بالاتصال على كمال بيه والد حاتم تسأله عن عنوان الشقة الموجودة

بالسادس من أكتوبر مخترعة حجة أنها تريد أن تعمل مشروعها الخاص، وتقوم بفتح محل ملابس كبير بمنطقة السادس من أكتوبر، وتستخدمها كمخزن بدلًا من إغلاقها، وأنها لم تخبر حاتم حتى تستأذن منه شخصيًا وطلبت منه عدم إخبار حاتم بهذا الاتصال حتى تعرف كيف تفاجئه.

رحب والد حاتم بالفكرة وأخبرها عن العنوان وخرجت نغم من منزلها ذاهبة إليها، وجدت سيارة حاتم تقف تحت العمارة فسألت الحارس عن أي طابق توجد شقة حاتم بيه، فأخبرها بوجودها بالطابق الثالث.

رجعت نغم إلى منزلها وعندما رجع حاتم متأخرًا واستلقى بجانبها. اقترب منها يقبل وجنتها فنفرت منه غاضبة فقال:

- هل هذا غضب من تأخيري؟ قالها حاتم وهو يبتسم.
- بلى ولكن أخبرني أين كنت إلى هذا الوقت المتأخر؟ قالتها نغم وهي ترفع حاجبيها.

تلجم حاتم وارتبك فلم يعتاد منها سؤالًا كهذا من قبل وضاع بين حيرته في الرد وسعادته بالسؤال.

- كنت في مأمورية حبيبتي كما تعلمين، ولا أخفيكِ سرًا، أحتاج إلى الراحة لدي عمل مهم باكرًا. قالها وهو يقبل

يدها واسـترخى بظهره وغلبه النوم تاركًا نغم في ضـياع وشـــتات وشـــعور بالغيرة لا تعلم هل هو من التعود عليه كزوج أم على كرامتها كأنثى.

اســـتيقظت نغم باكرًا، أخذت ســـلســـلة المفاتيح الخاصة به وذهبت إلى إحدى المحلات، واستخرجت نسخة من المفاتيح عدا مفتاح الســـيارة والفيلا فهي تعرفهم جيدًا ورجعت قبل استيقاظه، أيقظته في الساعة العاشرة والنصف صـــباحًا ليذهب إلى عمله وقامت هي الأخرى وذهبت إلى الشـــقة، صـــعدت إلى الطابق الثالث وفتحت باب الشـــقة بطريقة سريعة، كانت على يقين بأن هناك أمرًا ما يخفيه. دخلت فصُعقت عندما رأت شابًا. كانت تشك، بل تأكدت أنه على علاقة بامرأة أخرى وســـوف تذهب لتجد قمصـــان نوم وملابس نسائية خاصة، وبعض زجاجات الكحول كما ترى في الأفلام، لكنها انصدمت عندما وجدت أمير فهمّت تسأله:

- من أنتَ؟ سألته وهي تشيح بيديها مستغربة.
- أمير. أجابها مندهشًا هو الآخر.

سألت عن سبب وجوده بعدما تأكد أنها زوجته، وأنها الوحيدة القادرة على إخراجه من هذا الســـجن وأن تفلته من يد السجان حاتم، فأخبرها القصة كاملة واشترط عليها أن يكون الأمر سرًا بينهم، وأن تتعهد أمامه بخروج

والدته من السـجن دون أن يصـيبها مكروه. طمئنته نغم فأخبرها بكل شيء تفصيلًا.

صُـدمت نغم، مادت بها الأرض، اشـمئزت من حديثه وشـعرت وكأنها في كابوسٍ تدعو الله أن تسـتيقظ منه وخانتها دموعها فبكت. ثم في قليل من ثبات مصـطنع اسـتجمعت قواها ورجعت من شرودها ومدت يدها في حقيبتها وأخرجت هاتفًا آخر كان في حقيبتها أعطته لأمير وطلبت منه تسـجيل فيديو لهما معًا في الفراش تصـديقًا لكلامه، فأبعد ما يمكن أن تتخيله أن يكون زوجها حضرة الضابط شاذًا جنسيًا. لتطمئن أمير أكثر أعطته نسـخة المفتاح وطلبت منه بعد إرسـال الفيديو لها من خلال رقمها الذي سـجلته على الهاتف الذي منحته إياه وبعض النقود قالت:

- بعد أن تنتهي من مهمتك هذه، تهرب من المنزل متوجهًا إلى هذا العنوان في محافظة كفر الشيخ.

وكان عنوان والدها الذي سـوف يحميه من بطش حاتم ولا يمكن لأحد أن يمسه بسوء هناك وأضافت:

- أنا سـوف أخبر والدي عن ذهابك فور ذهابي من هنا. اطمئن لها أمير الذي لا يملك خيارًا آخر بعدما قالت له:

- هذه هي الحيلة الوحيدة لخروجك من هنا حيًا.

قام أمير بوضـع الهاتف فوق الخزانة ضـاغطًا على زر التسـجيل دون أن ينتبه إليه حاتم عندما دخل الحمام ليقضي حاجته، وانتهت المهمة بسلام، وقام بتسجيل الفيديو وحاتم يظهر فيه بصـــورة جيدة وصـــوته عاليا وصـــارخًا، وخرج من الشـقة بعد خروج حاتم المنتشي بلحظاته الجميلة متجهًا إلى محل خلويات، اشـترى شريحة هاتف جديدة بها حزم إنترنت، ثم ذهب إلى مجمع الســـيارات بالقاهرة اســـتقل الســـيارة المتجهة إلى كفر الشيخ ثم قام بإرسال الفيديو لنغم.

****

أحب مراد الأردن، شـــعورًا منه بالإمتنان أنها ما زالت تحتفظ به في جوفها، تجول في ضـــواحيها فبدأت تنمو في صـــدره شـــجرة زيتون، ولَطَّف هواها لهيب غربته فظلت مشاعره في مناخ معتدل، لمس الثقافة تتزين في الأسرة الأردنية صـغيرها وكبيرها، كان مُصرًا أن يكون قمرًا يلفت الأنظار حيث يضيء، عمل واجتهد وادخر، سـقته الغربة رفاهية المعيشـة فكان مثل الزهرة التي عزمت على التورد ففسـحت لها الجبال

شقوقًا لتزهر، أحيانًا ما يجعلك تنبت هو أنك لا تملك خيارات كثيرة.

في الأردن أنت لست غريبًا بل فقط مغتربًا، أحبها فأحبته، راودته عن نفسها فقال هيَّت لكِ، أكل من أكلهم وشرب من شريهم، لبس شماغهم وعقالهم، عاش بين الثقافات، تذوقت أذنيه جميع اللهجات، تسكع في أزقتها، ردد معهم نشيدهم: (موطني.. موطني).

تعلم لهجتهم تباعًا لمقولة قرأها ذات يوم: «من تعلم لغة قوم أمن مكرهم»، ثم تحدث بها حبًا، صار صدره يجمع بين حبيبتين عظيمتين، مِصره بالروح والجسد والأردن بالشرايين والأوردة. يفاخر بمصر وتاريخها في مجالسهم، يحدثهم عن القُرى والمدن فيزدادوا شغفًا بها، يفاخرهم بحضارتها فتغدو قلوبهم كمعبد سنبل، يقينًا يعلم بأن مصر هي الدولة الوحيدة في العالم التي كلما رجعت للوراء تقدمت.

بدأت تتحسن معيشته ودخله، تشعب في ضواحي وجبال الأردن مثل الأشجار، أحب شعبها وطريقة نطقهم للغة العربية، هدأت نفسه رويدًا رويدًا وأخذت الأمور محنى غير الذي كان يخشاه.

****

ظهرت النقطة الحمراء في الكاميرا المسلطة على وجه أنور وخاطبه المخرج من خلال الميكرفون الصغير في أذنه: «أنت على الهواء»، فتبسم أنور للكاميرا وقال:

- أعزائي المشاهدين أهلًا بحضراتكم مرة أخرى ثم تنهد ونظر إلى رزان الهادئة في جلستها وبادلته ابتسامة حانية فقال:

- أعتقد أن جمهورنا العزيز يتوق شوقًا لمعرفة الجزء الأخير في سهرتنا ولقائنا وهو كيف تم اللقاء مع مراد؟

ابتسمت رزان في هدوء واسترقت النظر إلى الحضور في الإستوديو، ثم عادت بعينيها إلى أنور وأراحت ظهرها للمقعد تحدق في السقف، ثم اقشعر جسدها وترنحت الدموع في مقلتيها ثم تنحنحت وشرعت في الحديث.

غوَّر النهار وأسدل الليل ستائره وأنا أبحث عن هاتفي فوق سطح المكتب بغرفتي بعد أن احتفظت برقم مراد الموجود على بياناته الشخصية على صفحته في الفيس بوك وقمت بالاتصال، فجائني رده من الناحية الأخرى:

- ألو، مساء الخير. بادرني هو بالحديث.

- مساء النور، حضرتك السيد مراد، قلتها مرتبكة خوفًا من أن أكون احتفظت برقم شخصًا أخر.

- نعم أنا، مَن حضرتك؟

تنهدت وتنفست الصعداء فشعرت بضرورة الحديث بعد أن تأكدت أنه هو مراد عاشور ثم قلت:

- اسمي رزان مذيعة بقناة (الشروق) الفضائية.

عندما سمع كلمة مذيعة شعرتُ بأنفاسه في أذني مضطربة، كأن صدره انقبض واندهش قليلًا، ثم أكملت حديثي وقلت:

- كنت أتصفح هاتفي، فظهر أمامي اسمك في مجموعة أدبية ناشرًا بعض الأبيات الشعرية فراقني ما قرأت، ودخلت على صفحتك فوجدت كلامًا أدبيًا رائعًا ما بين أبيات شعرية منظومة ونصوص نثرية.

يستمع مراد إليَّ ولا ينبس ببنت شفة وأنا أسترسل في حديثي، فطال سكوته حتى خشيت أن يكون أغلق المكالمة:

- سيد مراد، هل تسمعني؟

رد مراد سريعًا بعد أن أعاده صوتي من شروده فقال:

- أسمعك رزان، أكملي حديثك.

- يســـعدني أن تكون ضـــيف حلقتي في برنامجي الجديد على التليفزيون الأردني، ســوف أقوم بطرح أســئلة بســيطة عليك حول نبوغك في الشـــعر ونســـتمع إلى بعض قصـــائدك، فما رأيك؟

رعشـــة ضربت جســـد مراد بالكامل، تبسَّـــم وجهه وانقبض صـــدره، فرح بشـــدة، وانطلق قلبه من بين جنبيه مُحلِّقًا في الفضاء، وقال وهو لا يستطيع كتمان سعادته:

- بل الشرف العظيم لي طبعًا.

وأضاف وهو يترنح في الهواء كطفل صغير ويتراقص قلبه طربًا على نسـمات الهواء التي تضرب وجهه فيفتح لها صـدره مُحِبًا وسعيدًا ومنتشيًا:

- متى يكون هذا اللقاء؟

لم أستطِع إخفاء ابتسامتي وقلت:

- يســعدني حماســك لكن يجب في البداية أن نتقابل في مكان نتحدث فيه بشأن اللقاء، فمتى تحب؟

قاطعها أنور بنظرة ماكرة وخبيثة وقال:

- وهل كل ضـيوفك في البرنامج طلبتي لقائهم شـخصـيًا قبل عمل اللقاء التليفزيوني معهم؟

خجلت رزان واحمرت وجنتيها ولم تقوَ على كتمان ضـحكتها من سؤال أنور فقالت بلغة جادة:

- في الحقيقة لا، وأنت تعلم ذلك لكنني أردت أن أرى من هذا الشـخص الذي خاطرت نغم لأجله وطلبت إخفاء الأمر عنه، كنت أثق أن ثمة علاقة جمعتهما.

ثم أكملت رزان عن حديثها مع مراد على الهاتف وقالت، بعد أن أخبرته أن لا بد من لقاء يجمعنا فاجئني قائلًا:

- الآن.

قالها مراد دون أن يشـعر بالوقت، غلب عليه حماسـه فضحكت بنبرة عالية لم أقوَ على كتمانها وقلت له:

- يا رجلًا لو أنني أخبرك أن تأتي لخطبتي ما كنت أجبت بهذه السرعة.

ضحك مراد ضحكة عالية قد يكون انتبه من صوتها أصدقاؤه وقال وهو يبتسم:

- يشرفني ذلك بكل تأكيد ولكن حينها يحتاج الأمر إلى تفكير.

لم تفشل جملته في إضحاكي وقلت له:

- ليكن موعدنا غدًا في السادسة مساءً، هل يناسبك؟

- فليكن كذلك، على الرحب والسعة. أجابني مراد مبتسمًا وسعيدًا

وأغلقنا الهاتف.

****

بعدما أغلق مراد المكالمة بينه وبين رزان، كاد أن يطير في الفضاء كأن الحياة تشرع أبوابها في عينيه وهو يتقدم نحوها سعيدًا، لم يعرف لماذا خطر على ذهنه المرأة التي كان يراها في أحلامه وتذكر حُلم عنقود العنب والسنبلة التي وُضعت في يده، والتي كانت نفسها هي السيدة التي شاهدها أمام المسجد وتذكر مقولتها: «أدِّب حواسك على التأمل، يمنحك الكون رسائله».

ذهب إلى فراشه كي يغفو وشعر بأنه يحتضن العالم بأسره بين يديه هاجت وماجت نفسه في انتشاء وسعادة بالغة.

استيقظ مراد متوترًا لا يصدق ما جرى بالأمس وكانت نومته مضطربة، استعد للذهاب إلى العمل، واعتذر من مديره المسؤول عن عمال النظافة في المستشفى عن عدم استطاعته للعمل حتى نهاية الدوام مدعيًا المرض. رجع من عمله في الساعة الرابعة عصرًا تحمم ثم صلى العصر وتأهب لمقابلة رزان التي تنتظره في إحدى المقاهي الفاخرة بشارع الصويفية بعدما أرسلت له على رقمه من خلال الواتس آب موقع تواجدها.

استقل مراد سيارة للأجرة وأعطى هاتفه للسائق كي يرشده إلى الموقع المُرسل على الهاتف، وترك رأسه للتساؤلات التي نغصت عليه بهجته قليلًا، كيف وصلت رزان إلى رقم هاتفه؟ فتذكر أنه أضافه في معلوماته الشخصية علي صفحته الإلكترونية، رمى بالأفكار السلبية التي لا تسمن ولا تغني من جوع من النافذة التي فتحها في السيارة ليملأ صدره بالهواء.

****

أخذت رزان تستطرد لقائها الأول بمراد في لحظة سعيدة تراها على أوجه جميع الحضور بما فيهم أنور وقالت:

وصل مراد إلى المكان الذي أنتظره فيه، تعرفت عليه أثناء دخوله بعدما شاهدت صوره على الفيس بوك، ورأيته يدخل خجلًا مرتبكًا، ينظر يمينًا ويسارًا، قمت من مقعدي أستقبله.

كان جذابًا في طلته رغم الارتباك، متناسقًا في مظهره رغم البساطة، جميل الحضور رغم كل شيء فشعرت بإعجاب شديد تجاهه. تحركت قبالته أستقبله وبسطت يدي أصافحه.

المقهى كانت واجهته من زجاج، تطل على الشارع، كبير المساحة بتصميم معماري حديث، تتدلى الثريات منه بمستوًى واحد بداخلهم لمبات صغيرة لتمنح إضاءة خافتة، مقاعد وثيرة ومناضد حديدية دائرية الشكل سطحها زجاجي تحمل علبتين أحدهما لوضع أكياس السكر والأخرى للمحارم.

- أهلًا مراد. بادرته بترحيبي مبتسمة بعد أن جلسنا على طاولة من مقعدين.

- أهلًا أستاذة رزان. قالها مراد متلعثمًا ومرتبكًا.

- بدون أستاذة. قاطعته لرفع الكلفة، ثم قلت:

- نحن هنا في جلسة أصدقاء نتناقش حول أمر ما يخص كلانا فلا داعي للرسمية.

- يسعدني ذلك. أجابني باقتضاب لكن جملته كانت لا تخلو من الود فقلت:

- ممتنة لحضورك مراد، فتعالَ نتحدث حول موضوع اللقاء.

- قبل الحديث عن أي شي، أحقًا ما أخبرتِني به على الهاتف بشأن معرفتي أنها كانت من خلال مجموعة أدبية؟

تلعثمت وابتعلت ريقي لا أعلم بماذا أجيب؟ فحاولت الثبات كي لا يشعر بريبة في الأمر وقلت:

- نعم هذا ما حدث. قلتها وأنا أخشى أن يسألني عن أي مجموعة أدبية أتحدث من باب التصديق فأكملت وأضفت:

- وللأمانة، كي نعطي كل ذي حق حقه...، ثم صمت لوهلة وأكملت صديق عزيز يقرأ لك بعض قصائدك التي تقوم بنشرها على المجموعات الأدبية وكان يعلم عن بحثي عن مواهب شابة جديدة وكنت أنت من ترشيحه.

سكت مراد ولا أعلم هل يحمل هذا السكوت تصديقًا أم تكذيبًا.

قاطعنا النادل وطلب كلانا قهوة ســـادة ثم أكملنا حديثنا وهو يقول:

- أنا ممتن لهذا الشـــخص على وجه العموم ولكِ على وجه الخصـــوص باهتمامك بالأمر. قالها مراد فارتحت أن ســـكوته كان يعني التغاضي عن الأمر.

حاولت قطع هذه المســـافة من الترحيب والتســـاؤلات وقلت له:

- هل تحب أن تتعرف على الأسئلة التي سوف أقوم بتوجيهها لك؟

- لا بأس بذلك، لربما يكون من الأفضـــل كي يخرج اللقاء بالمســـتوى المطلوب. قالها مراد بعد أن هدأت ملامحه. فبادرني بسؤاله:

- هل تحبين الشعر؟

- أحب الشعراء ولا أصدقهم! قلتها وأنا أبتسم.

قاطعني مراد بعد أن ضحك حتى ظهر فكيه وقال:

- وأنا أكذب الجميلات ولا أصدقهن.

غرقت في حمرتي وحاولت أن أبدو هادئة بعدما وضـــع النادل أمامنا القهوة وذهب وقلت:

- هذا اعتراف منك أن حياتك ممتلئة بالجميلات.

- بل اعتراف مني على أنني بحضـــــرة امرأة جميلة. قالها مراد برزانة وثقة أخجلاني.

- شـكرته على لطفه وأَضـفت، الشـعراء يا سـيد مراد حياتهم ممتلئة بالنساء.

فرد مراد حازمًا وجادًا وهو يقطب حاجبيه ويقول:

- هذا تصور خاطئ نحن معشـــر الشعراء لا نصارع لكي نثبت عكســه، لأن القارئ يبحث بين الســطور عن الشــاعر لا عن الجمال، ينقب عن حياته لا عن فكرته، يحبك ويبغضك دون أي تدخل منك لهذا الحب والكره.

- لكن الشعراء متعددو العلاقات!

قاطعته وأنا اقترب من الطاولة بصدري ورأسي، فأضاف مراد:

- لربما يجب أن يعلم القارئ، أن الشــاعر لو لم تكُن في حياته امرأة ففي خياله امرأة.

نظرتُ إليه في تعجب وإعجاب لما يقوله، وشـــعرت أن هذا الشـعور يجب القضـاء عليه تمامًا، فاعتدلت في جلسـتي بعد صمت طال وأنا أنظر إليه فقلت:

- لنتحدث عن اللقاء التليفزيوني.

فقطعها مراد:

- ليكن كذلك.

تكلمت حول اللقاء، وتطرق الحديث حول مواضيع شتى بدأت من النيل وانتهت إلى الشام، عرفت كثيرًا عن حياته في مصر وظروف نشأته وبداياته في الأردن وتعاطفت معه بشكل كبير، وجدته شابًا غنيًا بالثقافة، متطلعًا إلى المعرفة، ومفعمًا بالحيوية والنشاط ووسيمًا. طلبت منه سماع قصيدة من قصائده فابتسم ولم يمانع وهدأت نبره واقترب قليلًا ينظر في عيني فتسربت قشعريرة ضربت في كامل جسدي ثم قال:

اصْغي لِكَلمي جلالةُ العاشقة

لا يليق بمثلِكِ لتكوني سارقة

فِاظهِري لي قلبي من إحدَى جنبيَك

أنا لا أجيدُ العومْ ونفسي غارقة

طربًا على طربٍ تتراقص مهجتي

رموشكِ أجنحةٌ وصوتُكِ زقزقة

أبيحي ليّ السُكر وادنو بفمِك

خمرتي ونبيذي شفاهُكِ المُعتَّقة

هي كالماءِ الزُلَال تصُبُّ بمهجتي

تغسلني من ماضي حياتي السابقة

عجلًا على عجلٍ أُحاكي قصيدتي

!ما يفعلَ شِعري بجوارِ مُعَلَّقة

سقطت الكلمات بمنتصف قلبي، أحببت شعره وأثنيت عليه كثيرًا. جلسنا قرابة الساعة كانت تربطني مواعيد أخرى، اعتذرت عن ضرورة المغادرة واتفقت معه على أن أمر عليه يوم اللقاء التليفزيوني لنذهب سويًا إلى الإستوديو فشكرني مراد وصافحته بحرارة وتركت يدي في يده لوهلة، شعرت بأن أنامله تنظم قصيدة في يدي فأحببت هذا الشعور وتحركت نحو الباب وقبل أن أغادر نظرت خلفي نحو المراد كان لا يزال واقفًا وقلت له:

- رقمي معك، إذا احتجت أي شيء لا تتردد في الاتصال بي.

****

تدور نغم في ردهة منزلها، تفكر في الذهاب إلى منزل والدها بعدما عرض عليها الأمر أكثر من مرة بعد وفاة حاتم، الخبر الذي اســـتقبله والده بانهيار عصـــبي حاد أودَى به إلى البقاء في الفراش لمدة طويلة، أخذت الأمر بجدية وقررت أن تترك الفيلا وتذهب لتعيش مع أهلها بالقرية بعد أن كرهت وحدتها وحياتها الخاوية التى ضاقت فيها عليها نفسها. علمت من منشـــورات رزان التي كتبت على صـــفحتها الإلكترونية أن اللقاء سوف يبث يوم الخميس على الهواء مباشرة مع الشاعر المصرـي مراد عاشـــور بقناة الشرـوق، فرحت نغم وســـعدت بهذا الخبر التي كانت صـــاحبة الفضـــل فيه على مراد، لكنها خشت أن تحاول التواصل معه لتهنئه.

سـئمت حياتها، التي لا تشـاركها فيها غير الأحزان تأكل وتشرب وتنعس معها، فقامت تتحرك نحو غرفة مكتب حاتم التي لم تدخلها بعد وفاته ســـوى المرة الوحيدة التي التقت فيها مع أمير، دخلت الغرفة وجلســـت على المكتب تقلب بيديها في الكتب الموجودة على سطح المكتب وأرخت ظهرها على الكرسي، شـاحبة الوجه، هزيلة الجسـد، لا تكف عن جلد الذات ولومها على وفاته، تشعر بأن الأمور آلت إلى الأسوأ من

الانفصـــال عنه وهو انفصـــاله عن الحياة بأكملها، يؤنبها ضـــميرها تجاهه شـــفقة لا حبًا. الخراب الذي خلفه مراد بتخاذله ورحيله لم يعيد ترميمه أحد، قصـــــــرًا من الأحلام والأماني ضربته الواقعية بوابل من صـــواريخ الطبقية فصـــار خرابًا مهجورًا لا تطئه حياة.

جلست على مكتبه بائسة وحزينة، لفت انتباهها أحد أدراج المكتب كان مواربًا لم يحكم إغلاقه فخشـــت أن يكون أحدًا فتحه بدون علمها، في حركة سريعة مدت يديها وفتحت الدرج وبدأت تنبش فيه فاحتكت يدها بقرص إســـطواني مدمج، قضـــبت حاجبيها ومســـكته قاضـــبة حاجبيها في استغراب ترفعه أمامها وكأن عدسة عينيها سوف تكتشف ما بداخله دون فتحه، نظرت على ســـطح المكتب فوجدت الحاســـوب الذي كان يســـتخدمه حاتم موجودًا، اقتربت بالكرسي من الحاســـوب ونظرت بدقه وتمعن فيه بعد أن أدخلت القرص المعدني بداخله، فتح أمامها ملفًا به صـــور ومقاطع فيديو، فتحت بطريقة عشـــوائية أول صـــورة فكانت لحاتم ومجموعة من الأصدقاء على مركب في النيل لم تتعرف على أحد فيهم إلا وجه مصطفى صديقه.

انتقلت بالســـهم إلى الصـــورة المجاورة لها، فكانت صـــاعقة من الســـماء تضـــرب جســـدها النحيل، فتســـربت

قشعريرة وارتعدت أطرافها وفتحت فاهها غير مصدقة، قامت بعمل تكبير للصورة والوجه الذي يصاحب حاتم في الصورة كانت أنثى، وضع يده على كتفيها ويظهر النيل من خلفهم في ليلة صيفية كان الوجه مألوفًا عليها لربما تعرفه، بل تأكدت من أنها تعرفه جيدًا، كانت الصورة لحاتم ورزان وهي تحتضنه، فتحت الفيديو التالي فوجدته يقف بجوارها وهي تقطع كيكة عيد ميلادها وهو يقبلها من جبينها.

ظلت محدقة في الحاسوب غير مصدقة تتخبط في أفكارها بين الماضي، ويمثله حاتم الذي سلبته من رزان دون علمها وبين الحاضر الذي قدمت فيه مرادًا مستصاغًا دسمًا بين يديها بجهل منها. وضعت يديها على وجهها باكية، يتردد في أذنيها حديث حاتم حينما كانوا يجلسون في منزل والدها قبل زواجهما وهو يخبرها أن علاقته الوحيدة السابقة كانت أنثى من خارج مصر، ضاقت بالأمر ذرعًا، وتتساءل هل نفدت كل الإناث بعينيه لتكن المختارة رزان؟ هل لفظت به كل البلدان ليحب من الأردن دون غيرها؟ هي الأقدار تفعل بنا ما تشاء وتجيب على نفسها ولمَ العتب والرجل الذي تزوجت منه كان صديقًا لحبيبي؟ صرفت النظر عن حاتم وجال بذهنها مراد الذي أينعت ثماره الآن بين يدي رزان، سألت نفسها هل كانت تعلم رزان أن نغم هي زوجة حاتم حبيبها؟

كل هذه التساؤلات خرجت من جوفها على شكل لطمة قوية على وجهها وانكفأت على المكتب تبكي بصوتٍ عالٍ.

****

تروى زران الأحداث بمشـــاعر مختلفة، تنفعل حينًا وتهدأ حينًا آخر، ويستمع المشاهدين من خلف الشاشات بمشاعر مختلطة فرحًا وحزنًا. عادت الكاميرا لوجه أنور مرة أخرى وهو يبتسم ويقول:

- المخرج متحمس جـدًا لمعرفـة كيف دار اللقـاء التليفزيوني بينك وبين مراد؟

ابتسمت رزان تداعب أنور بالكلمات وقالت:

- لن أكون أقل احترافية منك في إدارة لقاء.

ضحك أنور وقال:

- هذا أمر معلوم فلتخبرينا عنه.

رجعت رزان بظهرها على المقعد وتنهدت تنهيدة طويلة تنم عن إرهاق شديد واستطردت الحديث.

لقـاءات عـديـدة جمعـت بيني وبين مراد قبـل اللقـاء التلفزيوني ومكالمات هـاتفية طويلـة عرفـت بهـا الكثير عن

حياته، وعرف فيها الكثير عن حياتي وذهل عندما علم أن دراستي كانت في جامعة القاهرة لكنني لم أخبره عن علاقتي بمصطفى أو حاتم أو نغم، عمقت علاقتنا دون أن يفصح طرفًا للآخر عن اسم أو صفة. أُعجبت كثيرًا بفكره وشخصيته وبادلني نفس الشعور وشعرت من خلال لقاءاتنا بأن الأردن امتدت جذورها في قلبه من خلالي.

أخبر والدته عن اللقاء التليفزيوني، انتشى قلبها فرحًا هي وصديقه مصطفى وجمعت بعض نساء القرية القريبات منها وأصدقاء مراد اللذين أخبرتهم والدته بفرحة عارمة أن ولدها سوف يظهر في التليفزيون على محطة أردنية. كان لا يعلم مراد أن نغم هي الأخرى تجلس في غرفتها تشتاق النظر إلى ملامحه وتخشى النظر إلى وجهي التي باتت ساخطة عليه.

كاميرات كبيرة تتجه نحو مراد، كان متوجسًا، خائفًا وقلقًا. أنظر إليه بنظرات هادئة تحثه على الهدوء والاسترخاء. كان منتشيًا بهذه اللحظة التي تمنى لو أنها لا تنتهي، في مشهد لا يمكن أن تعبر عنه الأبجدية كلها في صدره.

بدأت الفقرة الشعرية، دخلت الكاميرا في المقدمة على وجهي فقمت بدوري أرحب به مبتهجة وسعيدة وقد صار ضيفًا لقلبي قبل القناة. بعد الترحيب بدأت بتوجيه بعض الأسئلة له وكان يجيب عليّ بدوره، كان أنيقًا وجذابًا،

يرتدي بدلة زرقاء بقميص أبيض دون رابطة عنق، اشـــتراها خصـيصًـا لهذا اللقاء فلا يملك مناسـبة أهم وأعظم من تلك. تدور الأسئلة حول موهبته الشعرية من النبوغ إلى البلوغ وعن حياته في الأردن والصعاب التي واجهته فيها.

تطرّق الحديث حول الحياة الشـخصـية فسـألته عن فتاة أحلامه، جاوبني بجملة وقعت في نفسي- وقوع الصـخور حين قال: «كانت امرأة وترية يصـــدح منها النغم»، كانت تشـاهده نغم وأكاد أن أجزم أنها ابتهجت بل فرحت بعد هذه الجملة التي علمت فيها مقصـــده، وبالتأكيد توقفت كلمة: «كانت» في حلقها كغصـة كما توقفت كلمة «النغم» في حلقي أيضًـــا فلم أســـتطِع بلعها، نحن النســـاء يدمينا الحديث عنَّا بصيغة الماضي، أن توضع أسماؤنا وراء كلمة «كانت». دار في ذهني لثوان معدودة أن يكون المقصـــود بها هي نغم حقًا التي كانت زوجة حاتم والتي أرســـلت لي تدفعني نحو مراد لأقدمه للجمهور، هل يُعقل بأن تكون حلقة الوصـــل بينهما هي، الحب؟ قطع شرودي مخرج البرنامج وهو يتحدث في السماعة التي في أذني ينبهني أنني بالغت في الصمت على الهواء.

تغيرت مشاعري بعد هذا اللقاء، كما تغيرت حياة مراد كاملة. بعد انتهاء البرنامج طلبت منه أن ينتظرني بالخارج كي نجلس سويًا لاحتساء القهوة ومنها أقله إلى البيت في سيارتي،

أخبرني مراد بموافقته بسـعادة بالغة، بل كان ممتنًا ومبتهجًا بهذا الطلب، كان يشعر بالفضل تجاهي ويشعرني بأنني الضوء الذي رآه الناس من خلاله.

خرج مراد ينتظرني على الرصيف أمام مبنى الأستوديو يتحدث في هاتفه مع والدته وصـديقه مصـطفى فرحًا بردود الأفعال وبهجة والدته، المرأة الريفية البسـيطة التي قامت بشن الزغاريد له على الهاتف.

لم أتأخر عليه كثيرًا، صـعد في السـيارة وذهبنا إلى المقهى القريب من مسكنه، جلسنا معًا في مقهى صغير. طلب مراد كوبين قهوة سـادة من النادل الموجود، وكان ليلتها في فرحة عارمة يشعر أن السماء دنت أفلاكها وكواكبها تقبله من وجنتيه، نظر إليّ وأنا غارقة في الصـمت وعلامات الدهشـة تملأ وجهه وقال:

- ماذا بكِ؟

فجاوبته بعد ومضة من الصمت أقول:

- كان اللقاء جيدًا وقد أبليت بلاءً حسنًا.

رد مراد مستغربًا وقال:

- أعتقد أن ملامحك تقول خلاف ذلك!

نظرت نحو الوجوه الموجودة بالمقهى أحاول انتقاء كلماتي في هذه المناسبة السارة لكنني فشلت وقلت:

- هناك خبر أريد إطلاعك عليه، ولكن...

تنهدت قليلًا كنت متوترة بعدما تأكدت من شـــكوكي حول علاقة تجمع بين مراد ونغم، زفرت الهواء من فمي بغضـــب وقلت بتهكم:

- أريد منك أن تخبرني عن علاقتك بنغم.

اهتز كوب القهوة حتى كاد أن يسقط من يد مراد الذي انفرجت عيناه وتبدلت فصـــوله من ليلة ربيعية لليلة خريفية تسـقط فيها فرحته تباعًا كما تسـقط أوراق الأشـجار، انزعجت من نفسيـــ وكأنني أمســـكت بمقص ونزعت فرحته وقلبه نصـــفين، نبشـــت بيدي في قلبه ففاحت رائحة جثة الحب في أنفي. تلجم، تلعثم وما عاد يعرف ماذا يقول غير أنه قال:

- من أين تعرفين نغم؟

أجبت بلهجة سريعة وغاضبة وقلت:

- السؤال كان ما هي العلاقة بينك وبين نغم؟

شـــعر مراد أنـه في مـأزق لا يمكن منـه الخروج مهمـا حـاول التملص سوى بإجابة واضحة وشفافة وقال:

- كانت قصة الحب الوحيدة في حياتي.

لطمتني كلمة: «الوحيدة» في مقتلٍ، وقلت بعدما حاولت أن أبدو هادئة وصريحة وواضحة معه لتسير الأمور في مجرى من الشفافية وقلت بلغة حازمة وجادة:

- نغم صديقتي أو بالأحرى معرفة طيبة تعرفت عليها من خلال صديقة بجامعتها في سوهاج وهي التي طلبت مني أن أقدمك في البرنامج وأرسلت إلي رابطًا لصفحتك ومنها تواصلت معك.

اندهش مراد من المفاجأة التي كان بمنأى عنها الآن، أسعدته بقدر ما أفسدت فرحته لكن ظل هناك شعورًا يتذبذب في قلبه أن نغم ما زالت تبحث عنه، ما زالت تحبه وما زالت تراقبه، فنظر إلي بعد رحلة رجوع إلى مصر استغرقت دقيقة في ذهنه وقال:

- وماذا عنكِ؟

انحنيت برأسي قليلًا، ثم شعرت أن ثمة فرصة أمامي يجب اقتناصها فقلت:

- أنا لا أعلم جيدًا ماهية ما في قلبي تجاهك.. سكتُ ومضة من الوقت منكسة الرأس، ثقيلة الكلمات في فمي تريد الخروج فخرجت.. لكنني أشعر بالحب.

تلعثم مراد، لا يعرف بماذا يجيب في اللحظة التي علم فيها أن نغم ما زالت تفكر فيه لكنه لا يعلم عن وفاة حاتم شيئًا، لم يخبره مصطفى الشاهد الوحيد على قصة الحب التي جمعتهما وعلى الجانب الآخر لم أخبره أنا بدوري، أكثر ما كان يزعجني أنه يشعر تجاهي بالفضل أكثر ما يشعر بالحب يراني دومًا اليد التي انتشلته من المراحيض إلى الفضائيات وبات يعرفه الجميع، حاول أن يتخطى الأمر لربما يمنح نفسه وقتًا للتفكير وقرر أن يجاوبني في حرص وتقدير لمشاعري وقال:

- لو أن الحب اختياريًا لاخترتكِ، لو أنه أمنية لتمنيتكِ، لكنه قدر، لا أعلم حقيقة بمَا أجيب؟ غير أنني أشعر أن القلب على أعتاب الوقوع في غرامكِ.

****

امتلأ محرك البحث جوجل باسم مراد الذي ذاع صيته ما بين السماء والأرض، تطلب منه القنوات عمل لقاءات تليفزيونية معه وحققت حلقاته أعلى نسب مشاهدة على موقع (يوتيوب) وقامت دور النشر تتسابق في إصدار ديوانه الأول، انشغلت الأمسيات الشعرية باسمه، طالبته

برامج مصريــة بإجراء لقاءات معه فور عودته من الأردن إلى مصر، أقبلت الحياة عليه قبولًا حسنًا وانجلت الليالي الظلماء. أحبته الإناث والرجال، صار شعره متداولًا بين الجميع، عمل لقاءات كثيرة وتعاطفت معه الناس أكثر كلما تحدث عن حياته المأساوية بين مصـــر والأردن، كان مثالًا طيبًا للكفاح ونموذجًا مشرفًا لنفسه وبلده، استأجر شقة وسكن معه محمود صديقه الذي احتواه من أول ليلة له بالأردن، تنغمت الناس ودندنت بأبياته الشــعرية، واكتســت الجدران بأقواله وكلماته.

ظلت رزان بجانبه بعدما أخبرها عن قصــته مع نغم، تراجعت أن تعترف له بماضــيها مع حاتم واحتفظت به لنفسها، لم تخبره حتى لا يشعر أن قربها منه انتقامًا لنغم وهو ما لا يمكن أن يسمح به، تعرف رزان أن المساحة التي شغلتها نغم في قلب مراد لا تتســع لغيرها لكنها أحبت مراد حبًا لا تشوبه شائبة وتعلم أنه يمنحها احترامًا وتقديرًا لا حبًا، يعترف في كل المحافل الأدبية أنها الســبب بعد الله لما وصــل إليه ويقدمها للناس على أنها شريكة نجاح، لكنها تريده أن يعترف أنها شريكة حياة.

مرت الأيام والشهور وأسهم مراد في قلوب الناس بما فيهم رزان تصــعد ولا تتراجع، ظلت نغم بعيدة عن أعين

وآذان مراد، تزعجها فكرة أنه يعلم بموت حاتم ولم يحَدثها بل حتى لم يعزِها في موته ولا تعلم أنه لا يعلم عن موته شيئًا. قطع مراد علاقته بحاتم بعد خروجه من مصر مباشرة، خشى أن يكون قريبًا منه بما يفسد حياة نغم فقرر الابتعاد عن حاتم بالجسد والصلة.

قرر مراد النزول إلى مصـــر لزيارة والدته وإجراء بعض اللقاءات التليفزيونية هناك، دب الخوف في قلب رزان بهذا الخبر فهي وحدها تعرف الأسرار المختبأة، تعرف أن حاتم اختفى من حياة نغم، تعرف أن مراد ما زال يتربع قلب نغم، حاولت بكل جهدها أن تمنعه دون أن تفصـــح عن شيء لكن كل محاولاتها باءت بالفشل.

****

عادت رزان تستطرد حديثها عن المحطة الفاصلة في علاقتها بمراد بعدما قرر الرجوع إلى مصـــر في وقت لم تحصد فيه حبًا كما أحبت أو قربًا كما تمنت وقالت:

- ذهبت بســـيارتي أمام شـــقة مراد التي اســـتأجرها مؤخرًا لتناســـب وضـــعه الإجتماعي الحالي، حاملة معي تذكرة ذهابه

إلى مصـــــر كأنني أحمل كفنًا بين يدي وأرجوه الغفران وعدم الرجوع. بعد دقائق معدودة نزل مراد وجلس في السيارة، كنت شـــاحبة الوجه، عابســـة وحزينة فقال لي بملامح هادئة وهو يبتسم:

- ماذا بكِ؟

نظرت إلى الواجهة الثانية متحاشـــية النظر إليه فحط يديه على يدي يهدئ من روعي ويقول:

- أخبريني عمّا يشغل ذهنك؟

نظرت إليه حزينة وقلت:

- أخشى أن تستقر بمصــر ولا تعود. ثم سقطت دمعة وحيدة من عيني رغمًا عن ثباتي.

ابتســـم مراد وقبَّل يـدي وقـال وهو يلوح بيـده اليمنى نحو الطريق:

- هذه الأرض تمتلك قلبي ولا شيء يعوق رجوعي إليها.

نظرت إليه بنظرة خاطفة وقلت:

- وماذا عني؟

هدأت ملامحه ووضع يده على شعري المنسدل فوق ظهري وقال:

- كنتِ صاحبة الفضل الذي لا أنكره، والآن أصبحتِ صاحبة القلب الذي لا ينكرك.

انفرجت حدقتا عيني حتى كادت أن تخرجا من موضعيهما، ابتسمت، توردت، احمررت، ضحكت وجرت أنهار الحب كلها في عروقي فطرحت عناقًا.

تنفست الصعداء، تغيرت ملامحي إلى الأجمل وهدأت ثورتي لوهلة وقلت:

- كن مستعدًا باكرًا، سوف تقلع الطائرة في الساعة العاشرة صباحًا وسأكون هنا أمام المنزل في الثامنة صباحًا أنتظرك ومددت يدي في حقيبتي وأخرجت تذكرة الطيران، أمسك مراد بالتذكرة ووضعها على أنفه كأنه يشتم فيها هواء مصر وتراب أراضيها وقال:

- هذا لو استطعت النوم من الأساس.

****

«ما كلُّ ما يَتمنّى المَرءُ يُدْرِكُهُ

تجري الرياحُ بمَا لا تشتهي السّفُنُ»

- المتنبي

علمـت نغم بخبر نزول مراد من خلال صـــفحتـه وقامت بعض الصحف المصرية بنشر الخبر، حاولت كثيرًا أن تخبره بما عرفته عن رزان وحاتم، بعد أن دبت الغيرة في قلبها عندما كانت تشاهد صورهم تملأ صفحته ومواقع التواصل، وهنـاك أخبـار تتحـدث عن وجود علاقـة بينهمـا أبعـد من الصـــداقة، ارتبكت، تجمدت واحتارت، مســكت بهاتفها ودخلت على صـفحته لترسـل له رسـالة، لم تتردد كثيرًا عندما قالت في نفســها لا شيء الآن يمنعه بعدما صـار شـاعرًا كبيرًا، هو من تخاذل في الماضي ولســـت أنا، هو الذي تخلى وتجنى على قلبي وأنا التي تشـبثت لآخر لحظة، مراد ما زال يحبني، ما زال يكتبني ويكتب عني، ما زلت أتشـــمم رائحتي بين حروفه، جسـدي بين تشـبيهاته، كان ينعتني بأنني من سـلالة الكواكب ها هو الآن صـار كوكبًا لامعًا، فتحت الدنيا له ذراعيها وتنحني لـه الرؤوس تقـديرًا، لا شيء يعوقـه الآن إلا إن كـان لقلبـه حسابات أخرى.

أمسـكت نغم بهاتفها ولم تتردد كثيرًا بعدما أصرت أن ترسـلها من صفحتها الأساسية وكتبت قائلة:

«عزيزي مراد..

كيف حالك؟ كنتُ أول من آمنت بك، فكنتَ على قدر إيماني، وكنتُ أول من رأت في قلبك النور الذي يهتدي به العشاق الآن من كلماتك، أبارك لك ما حصدت»

لم تتمكن نغم من حبس دموعها حاولت التماسك قدر ما استطاعت إليه سبيلا ثم أضافت:

«قد مات حاتم منذ سبعة أشهر في حادثة سير، كما مات الحب في قلبك لي، أرى السَّبع العجاف تضرب بصدري وسنابل قلبي داهمها الذبول، أراني مثل سفينة في عرض البحر يضربني الموت من كل جانب، تخاذلت قواي عن ضبط محرك السير فرمتني في متاهة ليس لخروجي منها من سبيل. لا أخفيك سرًا عن مدى حزني عندما رأيت صورك أنت ومحبوبتك الجديدة رزان، أتعلم من هي محبوبتك!

هي المرأة التي تطيعني في قلبي بيديك، تنتقم مني بك».

رمت الهاتف من يديها، تاهت رؤيتها بين أدمعها الحارقة، نار تشتعل بين جوانحها لا تعرف كيف تخمدها، أصرت أن تكمل رسالتها فمسكت بالهاتف مرة أخري وكتبت:

«كانت رزان على علاقة بحاتم وكانت تعرفه حق معرفة وجمعتهم الليالي والأيام في قصة حب، كل هذه الأدلة معي على قرص مدمج لحفل عيد ميلادها أثناء دراستها في مصر،

أنا من أرسـلت إليها لتظهر في برنامجها التليفزيوني وهي تلتف حولك الآن مثل الأفعي لتعوض خساراتها في حاتم بك، تقتلني في قلبي بيديك، ترميني بســهم من قوســك، فأرجوك رجاء محب اســتعمرت قلبه وانفردت به وحدك دون غيرك، إذا أردت قتلي للمرة الثانية، فكن رؤوفًا ولا تمنح هذا الشــرف أحدًا غيرك».

ختمت نغم رســالتها بعدما انهارت من النحيب وأرفقت الرسالة بالفيديو الذي يجمع رزان وحاتم في ليلة عيد ميلادها.

****

وقف مراد في حجرة نومه يُحضرــ حقيبته مبتهجًا وســعيدًا، لا يتســع الكون لفرحته، ينظر إلى تذكرة الطيران بشــغف، يســمع صــوت الســواقي والطيور في أذنيه، تجري الأنهار أمامه حتى شعر بين عينيه جدولًا وأحس بالنسيم يهفو عليه من ســكرة الشــوق، يتخيل كيف يكون لقاءه بوالدته؟ يرى مصرـ كأنها عروس تزينت لإحتضانه، يشعر بالفرح الذي يناطح أهراماتها وأبراجها، يحس بأن الدم يســابق في الجريان

نيلها، اشتاق لها بكل ما فيها وكل ما هو منها، مصر التي لفظته من رحمها للشـــوارع يعود إليها قمرًا ســـاطعًا محمولًا على الأكتاف، مصر التي تصـهر روحه شـوقًا وهيامًا مهما قسـت، أمه التي مهما ركلته يعود إليها مُحبًا ومسـتسـمحًا، يعيش مراد في حجرته ليلته الخاصـــة كعروســـين اجتمعا بعد غياب، لا يطيق صـــبرًا لمرور هذه الليلة الثقيلة على قلبه، يتمنى لو أن يزرع الله في جانبيه ريشًا ليطير، الحنين أقســى أنواع المشاعر وأرهقها، ينشـــب في الروح فيأكلها على مهل، ســـاديًا يتلذذ بعذاب المحب شـــوقًا، دائمًا ما يشـــغل فراغًا في النفس للأشخاص، للذكريات وللأوطان.

الحنين للوطن أقساهم، فهو تحصيل ضرب الشخص في الذكرى فينتج وطنًا. وسـط كل هذه المشـاعر التي يعيشـها مراد وهو يرتب ملابســه والهدايا لوالدته وصـديقه مصـطفى وبعض جيرانه انتبه إلى الهاتف الذي يعطيه إشـــعارًا بوجود رسالة.

مســـك مراد بهاتفه وهو يبتســـم وما إن فتح الهاتف ووجد اســـم نغم حتى ارتعد، رمى الهاتف من يديه كأن أفعى لدغته، انتفض جســـده كله وارتعش وقال بصـــوت منخفض مندهشًا: «نغم»!

أمسـك بهاتفه مرة أخرى وفتح الرسـالة وقرأها وعينه تدمع، وجسـده ينتفض كأنها تضربه بصاعق كهربائي في قلبه، كانت المفاجأة التي لم ينتظرها، بل لم ينتظرها الآن تحديدًا، انصـــدم مما قرأ، اندهش مما علم، انتكس، غضـــب، حنق، حزن وفرح في آنٍ واحد. كتلة من المشـاعرالكثيفة خالطته مع كل سـطر وكلمة. غضـب من رزان غضـبًا شـديدًا، بل شـتمها ووبخها بأشـنع الألفاظ لإنكارها بمعرفة حاتم ثم موته، بالرغم من أنه أخبرها عن علاقته بنغم دون كذب أو خداع، شـــعر بـالخـديعـة وتملك قلبـه الحقـد والبغض تجـاههـا، لم تكن صريحة معه مما رسـخ في ذهنه كلام نغم حولها وبات مُصـدَقًا لديه لا يقبل التشكيك ليس فقط من أجل صحة الحديث بل لأنه خرج من الصـادقة الحبيبة نغم. شـعر أنه كان مجرد أداة لتحطيم قلب نغم ووســيلة رخيصــة لكيد النســاء. يحدث نفســه أن رزان قد فكرت في نفســها فقط ولم تفكر حتى أنه كان صـديقه الذي قضى معه أيامًا جميلة، لا يلوم حاتم على زواجه من نغم بل يلوم تخاذله وحده دون غيره.

فكر أن يتصـــل على رزان ويطلـب مقـابلتهـا، لكنـه تراجع، قال في نفســه لتكن الخديعة بمثلها، لن يجدي نفعًا الحديث وهو بعد بضع ساعات قليلة سوف يرحل عنها باتت فكرة عـدم الرجوع إلى الأردن وليـدة اللحظـة وقيـد التنفيـذ.

بالرغم من كل هذه المشاعر المختلفة التي سقطت على قلبه دفعة واحدة، شعر بنسمة هواء تتسلل إلى روحه بعد شعوره أن نغم ما زالت تعيش على ذكراه تحبه وتنتظره وقد باتت قطوفها دانية. فرح برسالتها بالرغم مما أغضبه من رزان عندما شعر بوكزة في قلبه منها، فكر بكل ما كانت تخشاه رزان بأن يفكر فيه، أنها أخفت عنه كل شيء لتحصل عليه وترد الطعنة في قلب نغم، شكك في مشاعرها وحبها حتى دموعها وأنهما كانا محض خديعة.

أغمض عيناه واستلقى على الفراش لا يعلم ماذا يصنع؟ كل ما يعلمه -بل أهم ما يعلمه- هو أن ليست مصر وحدها التي باتت قريبة، بل وأضِف عليها نغم التي صارت (قاب قوسين أو أدنى). وأمسك بهاتفه بعدما أزاح كل الحزن عن صدره لا شيء استطاع أن يفسد فرحته برؤية نغم ولا حتى موت صديقه وأرسل رسالة إلى نغم يخبرها بموعد وصوله مطار القاهرة لتنتظره.

****

عمَّت حالة من الصـــمت داخل الأســـتوديو، لا صـــوت، لا همس، انقبض قلب رزان وامتنعت الكلمات من الخروج. انخفضـــت برأســـها بين يديها واندثر وجهها تحت جدائلها فصـــدر صـــوت أنين. شـــعر أنور بضرـــورة الحديث لكشـــف سُـــحب الغمام التي ملأت مقلتي رزان ليعود المناخ صافيًا فقال:

- أقدر الوضع النفســـي الذي تشعرين به، فهل ترغبين بالخروج لفاصل إعلاني كي تهدئين قليلًا؟

قاطعته رزان رافضة وقالت:

- لا، يمكن الآن أن تستطرد حديثنا.
- ليكن كذلك، قالها أنور متحمسًـــا وســـعيدًا لرغبتها في استكمال الحوار وقال:
- كيف جرَى اللقاء بينكما أنتِ ومراد بعد هذه الواقعة؟

أحسـت رزان بهزيمة نفسـية وانتكاسـة، اجتهدت في ضـــبط انفعالها وكبحت جماح ثورتها وآثرت على نفســـها الحزن وقالـت بعـد تنهيـدة طويلـة اســـتنشـــقـت فيهـا كل الأكسجين:

- في الثامنة صـــباحًا كما أخبرت مراد كنت أنتظره أمام البناية القاطن فيها، اتصـــلت عليه أخبره

بوجودي فاجئني صـــوته كأنه لم ينَم. لم يتأخر كثيرًا ونزل ممسكًا بحقيبتين واحدة كبيرة وواحدة أقل منها حجمًا، تصـــافح هو ومحمود صـــديقه يودعه بعد أن ترك له الشـــقة مدفوعة الأجر لشـــهرين إعترافًا منه بصـــنيع محمود وشـــعورًا تجاهه بالفضـــل عليه في غربته منذ احتواه من أول ليلة له بالأردن.

وضـع مراد حقيبتيه وركب في السـيارة ملامحه غير مريحة، أخبرته أن يتفقد حقائبه جيدًا قبل الإنطلاق فأخبرني أن كل شيء على ما يرام. انطلقنا معًا متجهين نحو المطار، لاحظته غائب في صمته شارد الذهن، مشتت، لم أعهده من قبل بمثل هذه الحالة التي كان عليها مما أثار حيرتي وفضـولي فبادرته بالحديث:

- مراد، أنت بخير؟!

حاول الابتسام على مضض ونظر إلي نظرة هادئة لا تعطي أي انطباع وقال:

- لم أكن بخير قبل هذا اليوم.

- وجهك لا يوحي بذلك!

قاطعني حاد النظرة:

- فقط لم أنَم جيدًا.

- ســـوف أفتقدك كثيرًا، لا أعلم كيف ســـيمر على قلبي هذين الشهرين؟ قلتها ممتعضة وحزينة لفراقه.

- بل أنا من ســـيفتقدك دائمًا. قالها مراد ينظر إلى الطريق لا يعيرني أي انتباه.

ضغطت بسرعة فائقة على فرامل السيارة حتى كادت تصطدم بها السيارات من خلفي، وارتفعت أبواق السيارات في استهجان وسُباب.

- ماذا فعلتِ يا مجنونة، قالها مراد غاضبًا ومعنفًا.

- ما معنى ســـوف أفتقدك دائمًا يا مراد؟ كنت لا أجهل ما يحدث في مصـــــر حينها وأن كل الطرق المؤدية لنغم ممهدة لكنني حاولت أن أجذبه لي بكل ما أوتيت من حب ورغبة.

ضحك مراد ساخرًا وقال:

- هل أغضبتك هذه الجملة فعزمتِ أن تنقلب بنا السيارة؟

- تصرَّفت دون وعي فقط، قلتها خجلة من سوء تصرفي. ربت مراد على كتفيّ ونظر نظرة هادئة تحمل كلمات كثيرة لم أقدر على فك ألغازها ثم قال:

- حين نصل إلى المطار سوف أخبرك أمرًا ضروريًا، أسرعي الآن الوقت لم يعُد كافيًا سوف تقلع الطائرة.

****

تقف نغم أمام مرآتها متوهجة، مضيئة، لامعة وجميلة، ارتدت أفضل ثيابها، خلعت عنها الحداد ووضعت المساحيق الخفيفة. دبت فيها روح الحياة من جديد، لا تصدق أن مراد بعد عامين من الفراق والغياب سيدنو بين يديها بعد ساعات، لا يحول بينهم أحد، استيقظ جمالها مرة أخرى من سباته، جرت الدماء في أوردتها فتوردت وأزهرت ملامحها كأنه رمَى قميصه على قلبها فارتد بصيرًا.

طلب منها مراد أن تنتظره في المطار لتكون أول الناظرين إليه وأجمل الناظرين، تمر الدقائق بطيئة وثقيلة على صدرها.

تزينت، تجملت وتألقت للقاء مراد، أوصدت باب غرفتها وهي تستعجل بالخروج مُسرعة بخطى حثيثة، يحملها بساط الشوق فوقه ويطير.

****

عادت رزان تســـتكمل حديثها، تنظر يمينًا ويســـارًا، تتخبط بين الكلمات حتى أحس عليها أنور الإرهاق والأرق، تعلو نبرتها حينًا وتهدأ حينًا آخر وعندما وصلت لســـرد آخر التفاصـــيل التي جمعتها بمراد ارتجف بدنها وهدأت حِدتها، اصفر لونها وبدأ يعلو صوت أنفاسها وضربات قلبها، خشـــى عليها أنور من اســـتطراد الحديث لكنها أبت الســـكوت وتوجهت بكتفيها تنظر إلى الكاميرا التي أمامها حادة النظرة غريبة الأطوار وأخذت تروي ما حدث.

أمام مطار الملكة علياء وقفت أحدق في مراد الذي يمســـك في كل يد حقيبة ثم اقترب قبالتي فصـــارت المســـافة بيننا لا تحتمل حديثًا بل تحتمل عناقًا. تتجول عيناه في كل مكان كأنه يودِّع الأردن بما لذَّ وطاب في قلبه من حب وامتنان، يلوِّح لها بجوارحه اعتزازًا، يقبِّلها بعينيه وروحه قبلة وداع، يتشـــمم هواءها يريد امتلاء صـــدره بها، احتلت في قلبه حيزًا كبيرًا من الحب، بعد أن ملأته بالثقافة والمعرفة والاحترام لها، شهدت على نبوغه وكانت السُّلم الذي وصل به إلى الكواكب التي كان يخشى- النظر إليها وعصـــرت زيتونها في صدره كي تحفظ قلبه من صدأ الحب لها.

وقفت أشاهد تأمله صامتة مضطربة أشعر بأن ثمة مطرقة تضرب فوق رأسي سؤالًا وراء سؤال، نظر إلي مراد وقد هدأت ملامحه وصارت نظرته ودودة كما عاهدتها، نظرة اختلطت فيها مشاعره، يحمل النقيضين في قلبه تجاهي، المعروف والخديعة، الصدق والتكذيب ولربما الحب والكره. لا ينكر وقوفي إلى جواره كما لا ينكر كذبي، يشعر بالإمتنان كما يشعر بالخيبة، يقدِّر لي ما فعلته لأجله وتعاتبني نظراته على مدى الألم الذي يعانيه بسببي.

تكلمت أخيرًا متوجسة وضائعة وقلت:

- ها نحن هنا، بماذا تريد إخباري؟

نظر إليها مراد هادئًا وقال:

- أحمل في قلبي لكِ مشاعر جمّة، كانت كلها حبًا وتقديرًا وعرفانًا لصنيعك معي، حتى شابتها شائبة كدرت هذا النهر الجاري.

قضبت حاجبيّ غير مستوعبة في أي أرض ترميني مقاصد كلماته وحاولت الحديث فقام بوضع إصبعه على شفتيَّ وأضاف:

- قد علمتُ بأمر علاقتك أنتِ وحاتم. ارتجت الأرض رجًا من تحت قدمي وانبثقت حدقتا عينيّ، أشـــعر بالدوران، أترنح فلا يمنعني السقوط سوى السيارة التي اتكأت عليها، ثم أضاف:

- أو بالأحرى صديقي رحمه الله حاتم.

- صـــديقك! كيف ومتى؟ كانت المفاجأة أثقل من أن أتحملها وحدي وأجهشـت بالبكاء حتى صـار نحيبًا، أحسـسـت بقلبي يشـق صـدري نصـفين ليخرج، صُـدمت شر صـدمة، في مكان يفرِق أكثر ما يجمع وفي وقت لا يمكن التبرير فيه.

أضاف مراد حديثه وقال:

- حملتُ لكِ بقلبي الحب والفضـــل، فذهبتِ بالحب عني، صـــارحتك بكل شيء وفتحت لكِ قلبي آمنًا مطمئنًا، فقمتِ بخديعتي.

حاولت أن أتحدث، أن أتوســـل وأن أترجَى فقلت متماســـكة بعض الشيء:

- يجب إخبارك بأمرٍ مهم قد يغير من واقع الأقدار، قد يشـفع لي لماذا لم أخبركَ؟

هز مراد رأســـه وبإشـــارة من يده تمنعني الحديث رفض أن يسمع وقال:

- ليس هناك وقت ولا توجد مساحة في صدري تستقبل منك أي حديث، أخبرتني سيدة عجوز ذات لقاء وقالت: «إن الناس رسائل تمشي على الأقدام»، ولهنا انتهت رسالتك، شكرًا لكل شيء فعلتيه من أجلي. ومضى في طريقه لا ينظر خلفه، لا يريد رؤيتي، أنادي عليه فلا يجيب، أصرخ فلا يصغي، حتى اختفى بين الورَى وذهب.

****

في مطار القاهرة، تقف نغم مسرورة وسعيدة تحمل الزهور بين يديها لاستقباله في صالة الوصول، دقائق وخرج مراد من الصالة، ضخ قلبها كل النبض الموجود فيه وجرت نحوه فاتحة ذراعيها، ألقى الحقائب من يديه وكأنه يلقي سنين الفراق والغياب أرضًا ليلتحما ويلتئما ويجمعهما عناق طقطقت فيه الأضلع، انحبست فيه الأنفاس، احمرت فيه الوجنات واشتركت فيه الدموع. خرجت أنغامها بين طيات صدره لحنًا شجيًا، عزفت مقطوعاتها في أذنيه دموعًا وفرحة، امتلأ وجهها بالبكاء الذي يمسحه مراد بيديه وهو يبادلها

الدموع ذاتها. خرجا معًا من المطار متجهين نحو المقهى الذي شهد كل مشاعرهم المختلطة بالحب تارة والفراق تارة أخرى.

وصـــلا معًا إلى المقهى، جلســـت نغم أولًا، ثم مراد، صـمتا صـمتًا طويلًا، تبادلت الأعين الحديث حتى شـعرا معًا بالخجل. قاطع صـمتهما النادل فضـحكا معًا، طلب مراد منه كأسًا من عصير الفراولة وكأسًا من عصير الليمون.

قاطعته نغم وهي تبستم وتنظر نحو النادل:

- إذا سمحت، الاثنان فراولة.

ضحك مراد ضحكة عالية وقال:

- لا أعرف من أين أبدأ وفيما أنتهي؟

قالت نغم سعيدة فلنبدأ من حيث الآن، الآن وفقط.

- شـكرًا لما فعلتيه من أجلي يا نغم، شـكرًا للحب الذي أبقيتِ عليه لسنوات وحفظتيه في قلبك مُصانًا دون تغيير.

- بل شكرًا لأنك كنت على قدر إيماني بك وبموهبتك.

قال مراد وهو يتحسس أطراف أناملها:

- لن يفرقنا أحد بعد اليوم.

قالت نغم متحمسة سعيدة:

- هل حانت اللحظة لأن تجتمع الكواكب في فراش واحد؟ فقد أصبحت كوكبًا كبيرًا لا يصلك واصل. وأضافت بنبرة حانية وعذبة:

- أحبكَ مراد.

شعر مراد بالسعادة تغمر قلبه فقال وقلبه ينبض وترتفع أصوات أنفاسه:

- وأنا أعيش من أجل هذا الحب، أحبك وأحبك جدًا.

فقالت نغم بعدما هدأت قليلًا وتنحنحت تنظر إلى مراد المندهش من تغير بهجتها فقالت:

- ماذا فعلت مع رزان؟ هل ستعود من أجلها؟

ابتسم مراد من شعور الغيرة الذي ذاب فيه قلبه واقترب ممسكًا بيديها يقبلهما ويقول

- فلندع رزان وحاتم خلفنا من الآن وندعو لكلاهما بالرحمة.
- رزان ماتت! انقبض قلب نغم وقالتها في لهفة وغضب فضحك مراد حتى انتبه الناس من حوله لضحكته وقال:

- ما زال خيالكِ جامحًا يا نغم، لا، لم تمُت. ولكن في حضرتك كل النساء موتى.

ابتسمت نغم وشعرت بالسعادة البالغة وقالت وهي تتبسم:

- أريد أن أكون أول معجبة في مصـــــر يقال فيها الشـعر من الشـاعر الكبير مراد عاشـور، فقل لي شعرًا فقد اشتقت كثيرًا لصوتك.

توردت خدود مراد بالحب واقترب منها ناظرًا في عينيها وقال:

مجنونةٌ أنتِ

بل أنا أضلُّ منكِ سبيلَا

لو ينفذ العمرُ بين ذراعيكِ

سيبقى اللقاءُ بخيلَا

****

وصـــل مراد قريته بمحافظة كفر الشـــيخ، اجتمع العروسان، في منزل عصمت بيه والد نغم، ملأت البهجة أركان المكان وزواياه، آخر مرة دخل مراد بيته كان شـــاهدًا أن تكون نغم لغيره، والآن تشهد الناس على زفافهم، تبتسم نغم في ألق وتألق ومرح وسرور، اجتمعت القرية التي ترقص جداولها، وتغرد طيورها، وتقرع حوائطها الطبول، اجتمع أهل القرية فلاحيها وعمالها ونخبة من الأدباء والشـــعراء والإعلاميين والقضـــاة وذوات المناصـــب لمباركة هذا الزفاف الســـعيد، يتراقص الأطفال، تنثر والدة مراد الزهور فوقه هو وعروســـه فيقوم ليقبِّل يديها ورأســـها ويُجلســـها بحواره، تجلس نغم كالبدر في أوج توهجه، يبحث مراد عن صديقه مصطفى الذي علم بالزفاف متأخرًا نظرًا لغيابه في رحلة عمل في سيناء فتأخر عن الحضور وهاتفه مغلقًا، يريده مراد شاهدًا على الزواج كما كان شـــاهدًا على الحب، يقترب مراد من نغم ضـــاحكًا يقبِّل رأســـها وتزغرد النســـاء، تجذبه والدته لترقص معه فينهض ممسكًا بيديها يقوم ويرقص معها تحتضنه ويحتضنها، يجذب نغم معهما فتنهال عليها والدته تقبِّلها، لا يُصـــدِق مراد أنها بعد لحظات قليلة ستكون زوجته، سيدوِّن التاريخ أسطورة البشريّ الفقير الذي صعد إلى الكواكب فاحتضنته السماء ببركاتها ومَنِّها لتجعل منه كوكبًا، ستتغنى الأجيال بحبهما عما قريب.

مالت نغم على مراد تقول:

- أنا لا أصدِّق أنك بجواري أمام عين والدتي!

ضحك مراد وقال:

- بل وأمام عين والدك أيضًا أقبِّل يديكِ.

****

مسكت رزان بهاتفها غاضبة، حانقة، مستشاطة غضبًا وحانقة على مراد ونغم كليهما بعدما علمت خبر الزواج من خلال صفحة مراد في الفيس بوك وتناولت بعض الصحف الخبر لتكتب عنه.

دخلت على قائمة الأسماء تبحث عن رقم حفظته على هاتفها وضغطت على زر الاتصال، جاوبها الطرف الآخر على الهاتف وقبل أن يتحدث قاطعته رزان بلهجة سريعة وعنيفة كأن النار تخرج من جوانبها وقالت:

- إلى متى ستظل في مخبأك؟ أشرفتَ على العام تختبئ عند مصطفى دون أن يعلم عن وجودك أحد وأنك مازلت على قيد الحياة، ثم أضافت:

- الليلة يا حاتم سـوف يُعقد قران زوجتك على مراد. وأغلقت الهاتف دون أن تنتظر إجابة.

بعد دقائق قليلة من غلق الهاتف بين رزان وحاتم كان قد وصـل فيها مصـطفى إلى قريته التي يقطن فيها بعد عودته من سيناء، ألقى بحقيبته على الأرض يجري مهرولًا إلى أطراف القرية.

يحدث نفســه ماذا يفعل في هذه الكارثة، يقول لماذا لم يهاتفني مراد عند عودته مباشرة؟ فتذكر أن هاتفه كان خارج التغطية طول فترة غيابه عن القرية. ترك له مراد رسالة صــوتية يخبره فيها بعودته ولقائه مع نغم ويخبره بشــأن زواجهم ويحثه على عدم التأخير ليكون شــاهدًا على عقد القران.

ظل مصــطفي يجري بكل ما أوتي من سرعة ولياقة والأفكار تتخبط في قدميه حتى وصــل إلى المكان الذي يختبئ فيه حاتم. يدق الباب مسرـعًا بيديه ولهيث أنفاســه يدوي في صــدره. بعد لحظات قليلة فتح له حاتم باب الحجرة وذهل عندما وجد حاتم الواقف بنصــف الحجرة ســمين البدن من قلة الحركة، لحيته مشـعثة وملابسـه قديمة، تراه تشـعر أنه من أهل الكهف.

أسرع حاتم في إرتداء ملابسه يضع مسدسه أمامه على المنضدة الصغيرة الموجودة، كانت غرفة صغيرة الحجم بها فراش قديم ودورة مياه صغيرة بجوارها.

بادره حاتم بالحديث بعدما دخل الحجرة الصغيرة وأغلق الباب خلفه.

- هل كنت تعلم بقصة الحب التي جمعت بين مراد ونغم. قالها حاتم غاضبًا بصوت أجش والدماء تغلي في عروقه.

- نعم كنت أعلم، ولكن حفاظًا على صداقتكم آثرت الصمت وغادر مراد القرية بل غادر مصر كلها.

- هل كان يخدعني مراد، يخدعني هذا الحيوان طوال هذه المدة، هذا الزواج باطلًا ما دمت حيًا. قالها حانقًا وصارخًا.

- لا يا حاتم، أنا منعته من المواجهة معك، لا تلقي باللوم عليه قالها مصطفى وهو يتوسل حاتم أن يلتمس لمراد الأعذار، مسك حاتم من يديه وهو يحاول التملص منه خارج باب الغرفة، يشد عليه مصطفى ليبقى وينهره حاتم بالتوبيخ والكلمات ويدفعه بيديه دفعة قوية يرتطم على إثرها مصطفى بالأرض ليخرج حاتم من الحجرة كما يخرج الأسد من عرينه،

حاملًا مسـدسـه في يده متجهًا إلى بيت عصـمت والد نغم، مسـك مصـطفى بهاتفه بعد أن قام بفتحه سريعًا يتصـل على مراد لكنه لا يجيب.

بعد اصطدام سيارة حاتم وانقلابها على الطريق وقبل الإنفجار بلحظات قليلة اسـتطاع حاتم جاهدًا أن يخرج من السـيارة وقد صـار وجهه شـلالًا من الدماء كدمات وكسـور في كامل جسـده، عند خروجه من السـيارة يجز على أسـنانه من الألم وجد المسـدس أمامه بعدما سـقط من جواره على الكرسي حين كان ذاهبًا لينال من أمير ويقتله. حمله منبطحًا وزاحفًا، يجر قـدميه بعـدما ابتعـد قليلًا عن السـيارة التي انفجرت.

وجدته سـيارة في طريقها مغشـيًا عليه، حملوه إلى منزلهم بعدما اكتشـفوا أنه ما زال على قيد الحياة. كانا رجلان خشى أحدهم أن يحملاه إلى المستشفى؛ حتى لا يتورطون في قضـية قتل عمد بعدما علموا من هويته أنه ضـابط شرطة، فذهبا به إلى بيت أحدهم، كان رجلًا أربعيني يجلس لحاله بعد أن توفت زوجته، وعالجه في المنزل بواسـطة طبيب القرية الذي تابعه لمدة شـهر كامل حالما اسـتعاد عافيته، وطلب منهم ألا يخبروا أحـدًا بعـد عن مكان وجوده؛ فقـد كان مـا يخشـاه أن تعلم الشرطة بأمر الفيديو المرسـل لنغم وحقيقته

الشـــاذة، فلو علمت بهذا لألقت بالقبض عليه وتقديمه لمحاكمة عسـكرية عاجلة وإقالته من منصـبه، زيادة عن إنها سوف تمحي أوراقه من سجلات الشـــرطة، هذا إذا لم تمحِه من سجلات الأحياء، عدا على إن هذه الفاحشة تتعارض دينيًا وأخلاقيًا مع المجتمع الشـــــــرقي، وتحرمها كل الديانات السـماوية. قص حاتم عليهم رواية أنه يبحث عن مجموعة من الإرهابيين وقد دبروا له هذا الحادث وهو يريد أن يختبئ لبعض الوقت حتي يتأكدوا من أنه فارق الحياة. تواصـــل من خلالهم مع صـديقه الملازم حسـام وطلب منه أن يعلم نغم والجميع أنه وجد جثته محروقة، ثم اتصل على مصطفى يدبر له معيشـــة مؤقتة بعدما أخبره عن الفيديو الذي أرســـله أمير لنغم والمناقشـة العنيفة التي جرت بينهم. سـاعده على ذلك الغيبوبة التي دخلت فيها نغم لثلاثة أيام متواصـــلة كان أخذ حسام وقته ليدبر تقرير الطبيب الشـــرعي المزور ولم تحاول نغم التحري بعدما أخبرها حسام كما اتفق مع حاتم عن العثور على جثته مفحمة.

****

جلس مراد وعصمت والد نغم على المنضدة الكبيرة يتوسطهما المأذون ويحفهما المدعوين من كل جانب. ينظر مراد نحو نغم مبتهجًا، فرحًا سعيدًا وهي تغرق في خجلها ويتراقص قلبها على قرع الطبول، تقترب منه والدته تضع يدها على رأسه وهو ينظر إليها مبتسمًا. لا يصدق مراد نفسه، يشعر أن كل هذا حلم لا يتمنى الاستيقاظ منه.

جلس المأذون يتوسط مراد وعصمت بيه ثم نظر إلى عصمت يقول:

- قل، زوجتك ابنتي وموكلتي ال... قاطعه صوت أجش يصرخ من عند الباب ويقول:

- مراااااد.

انبثقت حدقتا مراد وانفرجت عيناه وفتح فمه، سكت الحضور توقفت الطبول، ذُهل المدعوين، شهقت النساء في صوت واحد. وقف مراد ونغم والمدعوون متصلبين أمام الباب الذي يدخل منه حاتم مُشهرًا مسدسه، يلحق به مصطفى الذي يلهث من خلفه حزينًا يدفعه حاتم بعيدًا عنه وتقف نغم وقلبها يرتعد، أسنانها تصطك ودموعها تهطل. تصلب الدم في عروق الجميع، صمت خيَّم على المكان قطعته نغم وهي تقول:

- حاااااتم، لاااا...

فخرجت رصاصة واحدة من مسدسه.

****

مســـح أنور دموعـه وغـاص الجمهور في بكاء مرير، تحشرج صوته ثم قال أنور موجهًا كلماته لرزان:

«وقد حُكِم أبديًا على ذوي الفاقة عدم بلوغ الكواكب حتى وإن دنت السماء».. ثم أضاف ليختم الفقرة واللقاء فقال مخاطبًا رزان:

- وتوجهت الرصاصة في رأس مراد؟

بلعت ريقها وهزت رأسها نافية وقالت:

- بل في قلبه.

تمَّت.

25-4-2020